الأمة تلد

إيمان الدواخلي

رواية

الطبعة الأولى

٢٠١١



دار اكتب للنشر والتوزيع

الأمة تلد

إيمان الدواخلي

الأمة تلد

إيمان الدواخلي

الطبعة الأولى ، ٢٠١١

اكتب
OKTOB.NET
دار اكتب للنشر والتوزيع

دار اكتب للنشر والتوزيع

١٠ شارع عبد الهادى الطحان ، المرج الغربية

موبايل :٠١١٠٦٢٢١٠٣

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

ولاء نصر

رقم الإيداع : ٢٠١١/٢٢٠٧

I.S.B.N: ٩٧٨-٩٧٧-٤٨٨-١١٦-٨

تقطع مدخل البيت ذهابًا وإيابًا وهي تفكر كيف ستخبره. لم يكن لديها أدنى استعداد لتكرار التجربة.. لابد أن تكون هجوميةً بما يكفي لتفادي هجومه. تزفر متأففةً.. تتجه إلى الشباك المغلق دائمًا.. تتمنى لو أنها الآن في لندن، أو حتى في لبنان، تجد النسمات التي تداعب وجهها وتهدئ نفسها.. لا بأس، هنا يحمل لها ميزة أخرى، فيكفي أنها مواطنة، وهذا يعطيها قوةً فوقه ذلك المقيم.

تلتفت إلى ذلك الكرسي الوثير، ثم تتجه إليه، فتلقي بجسدها، لتغوص فيه ملقية برأسها للخلف، ولتتأمل الظلام في الخارج محاولةً تنظيم أنفاسها، واستحضار هدوئها. تمر أمامها ذكريات زيجتها السابقة التي دامت لسنواتٍ أربع، وكيف انتهت بأمر من حماتها بعد ثلاث إحباطاتٍ مع الإجهاض. تعض على شفتها، وتهز رأسها في غلٍ.. لكم أحبته، ولكم كان ضعيفًا في مواجهة أمه.

لكن هذه المرة الأمر يختلف. هي من تملك أمر وليد في يدها، وعليه الطاعة. لابد أن يوافق وإلا فليعد إلى بلده، وليوَدع راتبه الذي ينفخ أوداجه على رفقائه به. ستقابله بوجهٍ متجهم، وسترمي نتيجة الآشعة إليه، وستخبره بقرارها بحسمٍ..

قطع أفكارها صوت المفتاح يدور في باب البيت، فتأهبت. دخل مبتسمًا يلقي التحية، فنظرت إليه من أعلاه إلى أسفله

دون رد. اقترب منها يسألها عما بها، فمدت يدها بمظروف الآشعة ناظرةً إليه بقسوة، كأنه من تسبب بتلك النتيجة.

مد يده فأخرج الأفلام ينظر إليها دون فهمٍ، ثم أخذ التقرير يقرأه. لم يفهم الكثير أيضًا.. شيء ما بالرحم يملأ جزء من تجويفه.. رفع عينه إليها مستفهمًا، فقالت:

- الرحم مملوء بأورام ليفية.

- ثم؟

- لن يحمل طفلاً أبدًا.

لم يبدُ مهتمًا كثيرًا، لكنه سألها:

- ألا يمكن أن تستأصل الأورام؟ أليست حميدة؟

وهي تكاد تبكي مضيِّعةً كل تخطيطها، أجابت بصوتٍ مخنوق:

- لا فرق.. ستترك جدارًا مهلهلاً لا يتحمل أن يتمدد للحمل.

حاول أن يظهر حنانه أكثر، فأحاط كتفيها بذراعه، ومال يقبل رأسها..

- حبيبتي، أنا لا أهتم كثيرًا بالأبناء.

دفعته بعيدًا، وهي تقوم من كرسيها في عصبيةٍ:

- أنا أهتم.

نظرت إليه بحدةٍ وهي تكمل:

- لديك الأبناء ببلدك، فلا يعنيك الأمر، أما أنا فلا.
حاول أن يعترض على تفكيرها؛ لكنها قاطعته:
- إن لم أحصل على الولد، فلا حاجة لي بزيجتك.
صدمه كلامها، فهز رأسه غير مصدقٍ.. استمرت:
- أعتقد تفهم عواقب ذلك.

ضم شفتيه ممتعضًا.. تعرف كيف تهدده، وهو الآن قد وضع كل ما معه في البناء، ويحتاج لإكماله وللإنفاق على أسرته أيضًا. ملعونٌ من اخترع نظام الكفيل. تنهد، وقال:

- حبيبتي، لا حيلة لنا كما ترين. لو أن المشكلة تحل بتلقيح الأنابيب، لما ترددت في القبول. لكن المشكلة في تكملة الحمل، وهذا لا حل له. حاولي أن تنسي ذلك الأمر، ولنستمتع بعمرنا معًا.

صاحت في وجهه:

- نستمتع! أمجنون أنت؟! تقصد تستمتع.. زيجة هنا، وزيجة هناك.. أبناء بنين وبنات.. سكن وطعام لا يكلفك شيئًا.. وراتب يغنيك.

تنهد، وأشار لها بيده أن كفى..

- إهانة لا.. أنا لم أقصر معكِ في شيء، وما ترينه من حل سأوافق عليه. هل هناك زراعة رحم؟

ردت في حزم:

- هناك استئجار.

أسكته الذهول.. فيمَ تفكر تلك المجنونة!.. نظرت إليه باستخفاف، وقالت:

- أراك فزعت.. ما المشكلة؟

- حرام..

- ليس حرامًا.. الحديث يقول أن سيأتي عصر تلد فيه الأمة سيدها.

- بمعنى؟

- من حقي أن أستخدم رحم خادمتي لتلد ابنتي.

صاح بها:

- حقك!.. كفي عن ذلك السخف.

- ليس سخفًا، ولا جنونًا.. هؤلاء الشيوخ يحرمونه، ثم سيعودون للاعتراف به بعد أن ينتشر كما يفعلون دائمًا.. لا معنى لأن أنتظرهم حتى ذلك الحين.

انخفض صوته..

- رجاء.. أنتِ جادة في ذلك؟

بكل حسم أجابته:

- كل الجد.

قفزت إلى ذهنه فكرة، ظنها تنقذه..

- خادمتاكِ عذراوتان.

بابتسامة بغيضة ردت:

- هل تصدق ذلك؟.. وإن يكن، فلتتزوجها.

- أتزوج من؟
- من تثبت الفحوص أنها تمتلك رحمًا سليمًا.
- بهذه البساطة؟!
- بهذا الجد، وإلا..
في ضيقٍ قاطعها:
- كفي عن التهديد.
- اسمع.. لقد بحثت في الأمر.. في الهند لا تأخذ إحداهن أكثر من خمسة آلاف دولار، وهناك مراكز كثيرة. في بلجيكا هناك مركز ممتاز، وفي فلوريدا أيضًا. الأمر منتشر في بلاد كثيرة ونحن فقط المتخلفون بسبب تلك الفتاوى، التي ستأخذ وقتها، حتى يحتاجونها لذويهم فيغيرونها.
أخذت نفسًا عميقًا، وأكملت:
- الأمر ناجح جدًا يا وليد.. إن إحداهن في الهند أجرت رحمها سبع مرات من أجل بناء بيت.. فقط افتح الإنترنت، وستجد المسألة شائعة أكثر مما تتخيل، فهم يعتمون الأمر هنا.
سكت لبرهة يدير الأمر في رأسه، ثم نظر إليها في حيرةٍ..
- ماذا إن حملت مني طفلها، وليس طفلك.
بشراسة ردت:
- هذه مسئوليتك.. وتعرف إن حدث، فلتحمل الخادمة معك وتعود لبلدك.

مر الأسبوع، تلك المهلة التي تركتها له ليقرر، بينما تستكمل هي فحوصات الخادمتين. لم يكن القرار في يده، وهذا ما يقتله كمدًا. يفكر في الخادمتين، روردورا الفلبينية التي يعتقد أنها تحصل على المال مقابل جسدها في كل فرصة تتاح لها، وتلك الإندونيسية التي لا يحفظ اسمها إلى الآن، ويتجنبها دائما. سمع كثيرًا عن السحر والأعمال التي يكتشفها من تعمل عنده بنات جلدتها، ولذا فهو يستنكر وجودها منذ أتت بها رجاء إلى البيت. كلتاهما لا يتخيل أن تصبح له زوجة.

يزفر بشدة، وهو يتذكر التزاماته التي لا فكاك منها. أيلوم نفسه، أم يلوم تسلطها، أم يلوم عياله ومسئوليتهم. أماني.. هل ستسكت على هذا إن عرفت به؟ إنه يعرف ما بها من ألمٍ منذ تزوج رجاء؛ لكنها لا تفتح فمها بالشكوى لكونها هي من أبت السفر معه كي ترعى والدها. لكن هل تقبل هذا الوضع؟!.. عاد يطمئن نفسه أن لا أحد سيعرف.. ثم أن الجنين سيكون ابنه حقا، لا علاقة له بأي رحمٍ سيحمله. ربما يطمئن أماني بأن ذلك سيعني أن أموال رجاء كلها ستكون لابنه أو ابنته.. لكن ليت هذا يهمها، فهي لا تأبه حتى بالانتقال إلى البيت الجديد.

قطع أفكاره دخول رجاء مبتسمة من باب البيت، تلوح له بمظروف كذلك الذي حمل تكشيرتها منذ أسبوع. ألقته على مائدة السفرة، ونادته أن يأتي. أشارت له أن يجلس،

فجلس صامتًا منتظرًا ما ستأتيه به من أخبار. قالت بمرح:

- أيهما تفضل، فأزوجك الأخرى؟

نظر إليها بغيظ، ولم يرد.

- رودورا ليست عذراء بالمناسبة.

ضحكت عاليًا، وأكملت:

- ساذجٌ أنت إذ تتوقع خادمةً عذراء.

أحس بالاحتقار لتفكيرها، يعرف أن رودورا لم تكن إلا عاهرة، لكن ليس الأمر معممًا على الخادمات كلهن بتلك العنجهية الكريهة. رغم امتعاضه إلا أنه ربما قد وجد المهرب:

- إذًا فلا داعي للزواج.. فقط اعرضي عليها الأمر، وانظري ما تقول.

رفعت حاجبها، وهي تهز رأسها ساخرةً منه:

- ولماذا ظننت أنني اخترتها؟ لماذا لا تكون ساراســـ...

قاطعها:

- لا.. إلى الآن تفرضين رأيك؛ لكن تلك الإندونيسية لا أقبلها. كما أن رودورا هكذا لن تورطنا في زواج، فلمَ تورطينني؟!

تنهدت مفكرةً للحظة، ثم قالت:

- لا أدري.. هؤلاء الفلبينيات لهن جرأة وغدر، وأخاف منهن.

رد في نفاذ صبر:

- وهؤلاء الإندونيسيات لهن سحر أسود، ويمكنهن إيذاءك أنتِ وطفلك.

اقشعرت لكلمة (طفلك).. التمعت في عينها دمعة، وهي تهمس:

- أتعتقد سيكون لي طفلٌ يا وليد؟

ولأول مرة منذ أسبوع يشعر بالإشفاق عليها. قام فأخذ رأسها في صدره، وربت على ظهرها مطمئنًا..

- سيكون يا رجاء.. سيكون بإذن الله، لكن فقط حاولي التأكد مما تفعلين.

دفعته عنها برفق، ومسحت دموعها بكم ثوبها..

- أنا متأكدة.. من اقترح عليّ الأمر طبيب أوروبي، يقول أن الأمر ينجح في عديد من المراكز في العالم، ورشح لِيّ أحدهم.

هم بمقاطعتها، فأسكتته بكفها على فمه..

- أعرف.. حتى لو كان حرامًا — وأنا واثقة أنه ليس حرام — فالله يعرف عذابي، وسيغفر لي.

دائما تثق في مغفرته.. هكذا هم عشيرتها.. يكثرون الخطيئة، ليقفوا عند حدود الكبائر، وليؤكدوا أن ستُغفر لهم أفعالهم. لا فائدة من مناقشة ذلك، فهو محفور فيهم منذ

طفولتهم. هكذا كانت تبرر له علاقتها به قبل زواجهما أيضًا..
"طالما لم تنج الباب فباب الجنة لك".. كم بهرته جرأتها وثقتها آنذاك..نظر إليها متسائلاً، وقد استسلم:

- وإذًا؟

- سأذهب إليه ليتصل بذلك المركز، ونسافر جميعًا.. إنه في بلجيكا.. قال إن السويد ولندن يحملان مخاطرة قانونية لا داعي لها..

- وعملي هنا؟

- ليس هناك مشكلة.. أحتاجك فقط حتى يأخذوا منك العينات للتنقيح، ثم تعود. لن يأخذ ذلك طويلاً.

لكأنما هو ذكر النحل.. أسرّها في نفسه، وسألها:

- وأنت؟

- أنا والخادمتان سنبقى حتى الولادة بالتأكيد..

رفعت حاجبيها مندهشةً، وهي تبتسم ساخرةً من غبائه..

- أتظن أني سأعود ببطني فارغًا، وبطن خادمتي منتفخًا لتلد هي هنا، ثم أطلب تسجيل الطفل باسمي؟! فكيف يا قوي الملاحظة؟!!

لم يرد.. سكت تمامًا وهو يفكر في كل ذلك الجنون. يفكر أنه لو ظل هكذا، فستكون بدايةً لسكوتٍ أطول عن أشياءٍ و أشياء.

خارجون من المطار، في ذلك الليل البارد إلى حدٍ ما، تكاد تجري لفرط حماسها، وهو يدفع عربة الحقائب، والخادمتان تتبعانهما مبتسمتان لا يعلم لماذا. يسأل أحد سائقي التاكسي أن يحملهم إلى العنوان المدون بورقة صغيرة في يده، يركبون جميعهم، ويحاول أن يسترخي في الطريق. تميل على كتفه، وتقول:

- الانفعال يقتلني.

- ساعات قليلة ونزور المركز فلا داعي للتفكير.. غدًا ناظره قريب كما يقال.

تربت على يده..

- أعرف أن توقفك عن التدخين يجعلك عصبيًا؛ لكن تعرف ضرورة ذلك لرفع احتمالات النجاح.

- لا عليكِ.. ربما هي فائدةٌ لي بعد فشلي الطويل في التوقف عنها.

- يمكنك الرجوع لها بعد العينات.

يخنقه صلفها.. لا يهمهما في الأمر سوى ما يمنحه لها من تلك الخلايا. يحاول الرد، فلا يجد كلمة مناسبة، فيؤثر الصمت.

يقلب ناظريه بين الخادمتين.. إحداهما منتعشة كأنما نالت الدنيا، والأخرى قد ازداد وجهها سوادًا، وقد ظهر الغل المكظوم بصدرها في نظراتها لرفيقتها.لكنها رغم ذلك تبتسم.

يفكر أن الأمر غير مطمئن، لا يدري لماذا يقلق من تلك الـــ "ساراسواتي" .. أخيرًا حفظ اسمها البغيض. مشوار أبغض، لكن لم يعد بد من تكملته، فهم بالفعل في الطريق إليه.

على عكسه كانت هي.. قلقة، لكن أملاً في تحقيق الحلم. مستهينة بقلقه من خادمتيها. مستمتعة بالجو الأوروبي حولها. متحفزة جدًا تجاه أي خطأ منه. لا تكف منذ قرروا السفر وبدأت هي في أخذ تلك العلاجات عن ملاحظته في كل خطوة، بل كل لقمة وشربة ماء يأخذها. هذه الأطعمة بها مضادات أكسدة تزيد نشاط الخلايا.. تلك تضعف الخصوبة.. ابتعد عن الملابس الضيقة.. البس الغيارات الداخلية من القطن فقط، فالحر يقلل الخصوبة.. ستتوقف عن التدخين حتمًا.. اشرب كذا ودع كذا... لقد تعذب بتحكماتها الخرقاء تلك الفترة الماضية، حتى تمنى السفر كي يقوم بدوره، ويُطرد الذكر من الخلية.

وصلوا إلى المكان.. يبدو فخمًا رائعًا من الخارج.. ولَم لا.. فما يأتي إليه إلا من يستطيعون الدفع بسخاء فقط. هؤلاء القوم عمليون جدًا.. في الحال أخذوه إلى المعملً.. سألوه إن كان يريد إحداهن معه لتحفيزه.. ضحكت هي كأنها تستمع إلى طرفة، ثم قالت أنها ستكون معه.

كان أسوأ موقفٍ يمكن أن يعيشه رجل.. حين يرى زوجته

تقف على يده كمدير جاد يريده أن ينتهي من تلك المهمة المكلف بها.. فشلت أن تكون امرأة، وفشل معها في أن يأتي بالعينة المرجوة. وخرجت لا تطيق النظر إليه، والإحباط يملأ وجهها.

في اليوم التالي، أتته الممرضة لتستدعيه للمعمل.. ساعدته قليلاً، ثم تركته وحده كما طلب.. حاول التركيز.. استدعى رجاء حين كانت تعرف كيف تغريه في تلك الأيام قبل زواجهما.. لكن أبت رجولته أن تصحو لها.. يريد أن ينتهي من ذلك الأمر.. يكرهها أكثر..يستدعى أماني وضعفها بين يديه.. ينتفض معها.. يناديها بقوة..

"أوحشتني يا أماني.. أوحشتني يا امرأة.. أوحشني أن أكون سيدك، وأراك تخضعين.. يخضعني خضوعك يا أماني فأكون رهن إشارتك، فاطلبي تجدي.. لكنك لا تطلبين إلا رضاي.. كم أوحشتني رجولتي فوقك يا امرأةً بحق..."

ينتهي.. يترك الحاوية في مكانها وقد لصق فوقها اسمه.. يتأملها وألف هاجس يغُزُّ تفكيره.. ترى هل سيستخدمونها حقًا؟ .. هل سيستخدمونها لرجاء فقط، أم يستغلونها لمن يبحثون عن خلايا منوية، فهو يعلم أن لها تجارةً هي الأخرى؟.. ترى هل انتهى دوره، وسيرحل ويرتاح من ذلك الكابوس؟..

وصل إلى غرفة رجاء.. طرق الباب، ودخل.. كانت شبه نائمة. نظر إلى رودورا متسائلاً، فقالت إنهم أخذوها منذ البكور لعمل منظار. جلس إلى جوارها قليلاً، ثم آثر أن يذهب ليرتاح إلى أن تفيق.

جلسا متجاورين يستمعان إلى شرح ذلك الطبيب البارد كبلاده، والذي لا يحمل وجهه أي تعبير. ينطلق في شرحه لهما عما سيتم.. يريهما صورا للخلايا الملقحة التي سيتم حقنها إلى الرحم المضيف.. يركز مع رجاء كثيرًا أن عليها أن تبدأ في الإحساس بتلك البطن وبأن من فيها هو وليدها هي.. أو ربما أولادها.

كانت منفعلة جدًا، ويداها ترتعشان.. هي تشعر أنها قد أدت ما عليها في تلك المسألة وبقيت أدوار الآخرين التي يجب أن ينجحوا فيها.. بينما هو يشعر بخذلان لا يدري سببه.. يسأل الطبيب إن كان يمكنه السفر، فقد أدى دوره بالفعل.. لكنه ينظر له باشمئزاز — غير مبرر في رأيه — ويخبره أن عليه البقاء لأسبوعين آخرين حتى تظهر نتيجة اختبار الحمل.

العجيب.. أن أحدًا منهما لم تعنه تلك الغائبة عن وعيها في حجرتها، والتي يفترض أن بذرتهما قد زرعت بأحشائها. قاما معا فخرجا للتمشي بالأسواق بحجة تهدئة أعصابهما.. وبقيت معها فقط رفيقتها الـ... فلبينية!

لو عدنا قليلا لبضعة أيام سابقة، فسنعرف أن الطبيب اختار الإندونيسية كرحم أنسب، في جسدٍ أنسب لجنين منهما، لكيميائيات عديدة لم يفهما منها شيئا، وقد أظهرتها التحاليل. ومنذ تقرر ذلك ووجه وليد متجهم، وألف تفسير غير منطقي يقبض صدره. لقد كانت رودورا هي المرشحة هناك، فكيف تبدل الأمر هنا.. أهو حقا السحر؟.. تضحك رجاء من وساوسه.. كلاهما بالنسبة لها خادمة، وتلك الفلبينية الجريئة لو حملت طفلها فستتجرأ أكثر.. هكذا أنسب كثيرًا في رأيها.

أثار مشكلة عذريتها، أقسم أنه لن يتزوجها مهما كلفه ذلك.. فإذا برجاء تضحك كالمخمورة.. وتخبره ببساطة مقززة أن "كله بثمنه"!.. بالفعل لم يكن الأمر مشكلة مع أي شخصٍ سواه. المرأة راضية، بل وتحمل شعورًا بالانتصار على غريمتها رودورا. رجاء لا تعنيها بكارة خادمتها في شيء.. والطبيب لا يعتبر الأمر أكثر من شقٍ بالمشرط..

يعلي الصمت كلمته بينهما لدقائق، يشعران بالبرد، فيقرران الرجوع.. حين يعودان، يمران عليها لدقائق.. تربت رجاء على تلك البطن التي تحمل أغلى آمالها، وتتمتم ببعض الدعاء. تبتسم ساراسواتي ابتسامة لا تريحه أبدا... وينظر إلى رودورا الجالسة بالجوار، فيلاحظ عينيها الحمراوتين كأنما لم تتوقفا عن البكاء.. أو الحنق.

أخيرًا يمر الأسبوعان، ويحين وقت التحليل.. الأربعة يتابعون قطرات الدم المتدفقة للمحقن المغروس بوريد ساراسواتي.. كأنما يحاولون قراءة خلاياه لمعرفة ما بها.. ساراسوتي قلقة؛ لكن نوع من الثقة يبدو على وجهها، ويدها الأخرى تعبث بما يشبه الـــ (حجاب) .. رجاء تنتفض وهي تمني نفسها بنصرة حلمت بها كثيرًا.. رودورا تتميز غلاً، تتمنى نتيجة بعينها كأنما عملت على أن تكون كذلك.. ووليد يتابعهن جميعا، ويتمنى لو ينتهي ذلك الكابوس ولو بأن تخرج النتيجة إيجابية فينفد بجلده عائدًا، ويتركهن تأكلن في بعضهن، عسى أن يتخلص منهن جميعًا، أو تكون سلبية فيتراح الكابوس المثقل لكتفيه.

نصف الساعة مرت كأنما دهر ثقيل، والكل صامت، ليس سوى تنهيدة من هذا أو تلك بين الحين والآخر. وحين طرق الباب، هب الجميع من شرودهم معلقين عيونهم بالداخل عليهم.

كانت ممرضة عجوز، تحمل في يدها مظروفًا.. سألتهم عمن اسمها ساراسواتي، وناولتها المظروف، وانصرفت، والكل واجم وقد انحبست أنفاسهم.

بمجرد أن أغلقت الباب وراءها، قفزت رجاء فخطفت، المظروف من يد الخادمة، وفتحته لتقرأه، ثم انهارت تبكي بصوتٍ عالٍ. قام إليها وليد، فأخذ رأسها إليه، ويده تربت

عليها، وقد أخذته الشفقة عليها، وإن كان داخله يزغرد فرحًا.

حين هدأت، ناولته ورقة التحليل، فنظر بها، وسبقت هي قراءته فقالت بصوت متهدج..

- سأصبح أمًا يا وليد.

لم يدر ما يرد به، بينما صاحت ساراسواتي في فرحة، وأمسكت ذلك الـ (حجاب) مغمضة عينيها، آخذة في التمتمة بما لا يفهمه أحد. ولم تستطع رودورا أن تحبس دموع كمدها، فتركتها تعلن عن نفسها أخيرًا. أما هو، فقد كانت ألف فكرة وهم يحتووه، ويأخذونه إلى أسوأ الهواجس.. أفاق على صوت رجاء تكلم رودورا..

- رودورا! لا تبكي حبيبتي.. ربما المرة القادمة تكونين مكانها.

فتح عينيه في ذهول.. لم يجد أي تعليق يمكن قوله. هز رأسه في صمت، وهي تحاول أن تبدو كأن لم تره.

...

وأخيرًا، ها هو عائد إلى غربته الأصلية.. عجيب شعوره. كان في غربة من غربة، وبعض الراحة تزور صدره الآن لعودته لغربته الأم. تمنى لو يستطيع العودة لبلده، ولحضن أماني، ولو ليومٍ واحد، لكن العمل لا يرحمه. تزوم الطائرة، وتتأرجح مع مطبٍ هوائي، فيضحك حتى تدمع عيناه، فقد غزته فكرة أن

يموت تاركًا كل تلك المتاهات التي يعيشها.

حين سكت عن الضحك، هتفت وساوسه بالسؤال.. هل إن حدث سيتأثر أحد من كل هؤلاء؟ أماني التي تعودت بعده هي وأبناؤهما، رجاء وقد حصلت على ما تبتغيه منه؟ هل إن تحطمت به هذه الطائرة سيفتقده أيهم؟!

يقاطعه صوت الطيار يعلن أنهم سيعبرون مساحة من المطبات الشديدة، وأن عليهم ربط الأحزمة. يعتريه خوف كبير من تحقق أفكاره، ينادي ربه أنه لم يكن يقصد.. يتوقف فجأة عما يفعله، ويضحك من نفسه. يفكر أن لا فرق بينه، وبين رجاء، فها هو أيضا قد ظن أن الكون طوع أفكاره. يسند رأسه للخلف، ويحاول الاستسلام للنوم.

...

- هناك شيء ما!

- ماذا؟

- يبدو الرحم خاليا.

- ماذا تقول يا دكتور! كان التحليل إيجابيًا، وهي الآن في أسبوعها الثامن.

- ربما لم يستمر.

تلتفت إلى خادمتها الراقدة على سرير الفحص، والطبيب يروح ويجئ بمجس الموجات الصوتية على أسفل بطنها. تسألها

في حدة عن حيضها.. تفزع المرأة، تقسم أنها لم تحض.. تنظر مستغيثة لرودورا، فهي القائمة على خدمتها في كل لحظة، ولو حاضت لعرفت بالتأكيد.

تنطق رودورا، وقلبها يرقص..

- لا يا سيدتي لم يحدث أبدًا.. أنا متاكدة تمامًا.

يطرق الطبيب بقلمه على المكتب منبهًا لهن للتوقف عن الثرثرة. بدون ترفق، كما طبع تلك البلاد، يشرح الأمر..

- هناك تكلُّس داخل الرحم.. يبدو أنه مات داخل رحمها، و لم تجهضه.

تنهار على أقرب كرسي، وتبدأ في النواح، بينما يمسح الطبيب ذلك الـــ (جيل) من على بطن ساراسواتي، ويقوم إلى مكتبه، ليكتب تقريره في لا مبالاة.

تخرجن جميعا من عنده.. رجاء تتوكأ على ذراع رودورا، وساراسواتي ورائهما منكسرة، مذهولة، تعبث في تميمتها غير مصدقة.

..

كانت تشعر بانكسارٍ جربته مراتٍ من قبل. أمسكت هاتفها، ودقت رقمه. حين سمعت صوته، انفتحت في نواحها مجددًا. من بين نهنهاتها فهم الموقف. رغم إحساس الارتياح الذي غشّاه، حاول أن يبثها حنانه، مهما تجبّرت، ففي حالتها

هذه هي ضعيفة مكسورة.

- يجب أن تأتي يا وليد.. يجب.

- حبيبتي، تعرفين ظروف العمل. يمكنك تكليف أي شخص بالحجز لك، وستجدينني في انتظارك.

- انتظار من؟ يجب أن تأتي لنعيد العملية.

فاجأه طلبها.. هذا لن يحدث.. يجب أن يجد وسيلة لإقناعها أن تعود.

- لا يمكن يا رجاء. بالتأكيد رحمها لن يكون مستعدًا، كما يجب أن تخضع للفحص بدقة، لنعرف سبب ما حدث.

لا يجيبه إلا نهنهاتها، فيكمل:

- رجاء، يجب أن تريحي أعصابك وجسدك أنت الأخرى. لا يمكن أن تبدئي ذلك العلاج بهذه السرعة.. ألا تتذكرين كيف كانت أعراضه الجانبية ترهقك؟

تتردد قليلاً، ثم ترد متلجلجة..

- يمكن أن نستخدم رودورا..

يتمالك نفسه من الغيظ،يغمض عينه ليركز فيما يمكنه قوله.. ويجد حجة مقنعة..

- ومن يخدمها يا رجاء؟ تقولين أن ساراسواتي ستخضع لعملية، وينتظرون تجهيز دم لها. معنى ذلك أنها ليست عملية هينة. فهل ستخدمين أنتِ رودورا؟

يزفر، ويكمل..

- بعض الصبر يا حبيبتي.. فكري في كلامي، وستجدينه منطقي.

يسمعها تتنهد دون رد، فيشعر أنه على وشك إقناعها..

- أنا في انتظارك يا حبيبتي. دعيني أرعاكِ قليلا، وربما نجد من هي أفضل منها أيضًا.

تبرق في ذهنها فكرة.. ترتاح قسماتها قليلا، وتهم بقولها؛ لكن تتدارك نفسها، وترتسم على شفتيها ابتسامة خبيثة وهي تضيِّق عينيها..

- اتفقنا يا وليد. سننتهي من عملية ساراسواتي، وسأقضي بعض الوقت في التسوق أيضا، ثم سنعود في أقرب وقت.. وربما أعود إليك بمفاجأة صغيرة.. أوحشتني يا زوجي الحبيب.

...

شهران مرا، وكاد وليد ينسى كل التجربة، ورجاء قد أرته من الاستقرار والهناء ما لم يذقه منذ بدءا تلك الرحلة.. كانت مفاجأتها التي وعدت بها هي نفخ شفتيها وصدغيها.. وكانت متفاخرة بشكلها الجديد جدًا حتى ظن أنها نست أمر الإنجاب. كانت تحب جدا أن ترى نظرة الإعجاب في عينيه، فكان يرسمها دائما، حتى وإن لم تعجبه تلكما الشفتين العجيبتين- في رأيه.

حتى ساراسواتي أعادها إلى مكتب الخدم، بالطبع أعطتها بعض المال لإسكاتها، وكانت المرأة في حالة نفسية مزعزعة، ربما لانهيار تلك الثقة الحميمة بينها وبين تمائمها. أيا كان الأمر،فإنه قد حمد الله أن تخلص من زهم روحها في البيت.

في ذلك اليوم، كانا يحتسيان القهوة العربية وقطع الحلو معها، حين بدأت حديثها..

- وليد!

- ها؟

- متى سنبدأ العلاج ثانيةً؟

بهدوء وثقة لعدم إمكانية ذلك في وجود رودورا وحدها،رد:

- وقت أن تستطيعي تحمل العلاج والشد العصبي يا حبيبتي، نبدأ.. لا مشكلة لدي.

ابتسمت، كصياد أوقع فريسته..

- فلنبدأ إذًا.

وقفت يده في الهواء بقطعة الحلو لا تصل إلى فمه، وهز رأسه مستفهمًا..

- هل وجدتِ من تخدم رودورا؟

بابتسامة متنمرة أجابت..

- بل رودورا ستخدمها يا حبيبي.

اعتدل منتبها، وسألها غير فاهم:

- تخدم من؟
- أماني!

...

محددًا بالطائرة..عائدًا إلى وطنه.. هذه المرة بلا فرحة.. هذه المرة بلا قطع لهدنة كرامته الغائبة في الغربة.. هذه المرة ليس وحده، فرجاء بجواره.

يلتفت إليها، فيجدها تنظر من شباك الطائرة إلى اللاشيء، مرتدية نظارتها الشمسية التي تغطي نصف وجهها.. ذلك أفضل، فهو لا يريد أن يرى نظرتها. يلقي برأسه للخلف، ويحاول تخيل أي (سيناريو) للقائهما — رجاء وأماني — فلا يملك إلا الانزعاج وكفى. أفضل ما في الأمر أنها حجزت لنفسها غرفة بأحد الفنادق.. سيعطيه ذلك بعض الوقت لشرح الأمر لأماني.. ليتها تشعر به، وتعذره.

رسم ألف مشهد لحديثه إليها.. ابتكر ألف عذر لاستجابته لرجاء.. بكى كثيرًا بين يديها، وهي ترفض الأمر وتحتقره.. لكنه استدفأ أيضًا بأحن حضن احتوته به لتسامحه.. تساءل حتى كادت رأسه تنفجر أي رد فعل منها سيكون خلال الأيام القادمة.. وأفاق من كوابيسه، ليجد فقط وجه رجاء توقظه، فقد وصلوا، وتعالى النداء بربط الأحزمة للهبوط.

حين وصلا إلى المطار، فتحت حقيبة يدها.. ظلت ترمي بعض الدولارات لهذا وذاك.. تطلق تلك الهنة الساخرة الصلِفة، وتنظر إليه، كأنما تشهده على فقر عشيرته، وقدرتها على شرائهم ببعض الفتات. تذكر أسلوبها المختلف، كتلميذ في حضرة ناظر مدرسته، منذ شهور قليلة في ذلك المطار. ابتسم بجانب فمه هازئا، مفكرًا في عجائب الخلق، إذ ترى كيف سيستمر كبرها ذاك أمام حاجتها لأماني.

وكأنما أعطاه تذكره لها بعض العزة، ففرد ظهره، وسبق زوجه بخطوة كي لا يجعلها تريه ما تفعل. لكنه عاد ليضحك من نفسه.. أهي الـــ (قرعة تتعايق بشعر بنت اختها)؟..

تنتهي الإجراءات ويركبان الـــ (ليموزين) فيتركها عند الفندق، ويكمل هو طريقه إلى حيث ينتظره الوطن.

..

في الفراش نصف جالس، وهي مستندة إلى صدره، تحكي له مما فاته طوال شهور غربته.. تخبره عن أبيها واقتراب أجله بعد أن ساءت حالته.. عن إرهاقها بين رعايته، ورعاية الأبناء ودراستهم.. وتخبره عن افتقادها له حين يغلظ عليها ابنهما الأكبر ذو الثانية عشرة عامًا.. ترفع عينيها إليه وتسأله:

- متى سينتهي كل ذلك يا وليد؟

يفكر لحظة قبل أن يسألها في هدوء:

– تريدين أن تكونوا معي يا أماني؟

– بل نريدك أنت معنا.

– تعرفين ظروف العمل.. أنا مضطر وأنتِ تعرفين.

تجلس مواجهة له، وتقول في رجاء:

– لكن البيت على وشك تشطيبه.. ماذا بعده؟

يبتسم في حنوٍ، ويداعب شعرها، ويشرد فيما جاء لأجله.. وكيف يصارحها به وهي تريد الاستغناء عن كل شيء!

– وليد.. أمن أجل زوجتك الثانية تريد البقاء في الغربة؟

يقهقه كأنما أطلقت أكثر النكات سخرية..

– بل أريد زوجتي الثانية من أجل الغربة والعمل يا أماني. تعرفين بالأمر كله يا حبيبتي.

تشيح بوجهها بعيدًا وهي تقول:

– لم أعد أعرف شيئًا.. وأنت لم تعد صريحًا أيضًا.

ينعقد حاجبيه غير فاهم، فتقوم من مكانها، وتتجه إلى وحدة الأدراج الخاصة به، لتفتحها وتخرج جواز سفره..

– هل لي أن أفهم معنى ختم سفرك لأوروبا يا وليد؟ ولماذا لم تخبرني؟ لو كنت في عملٍ، لأخبرتني، فلا تتحجج بشيءٍ لن أصدقه.

يتنهد بعمق.. ينظر لها برهة قبل أن يقول:

– وفرتِ عليّ طريقًا طويلاً يا أماني.. سأحكي لكِ الأمر..

عديني أن تكوني عونًا لي.

تلف يدها حول رقبها، كعادتها دائما حين الجزع، وتجلس بسرعة إلى جواره..

- أنت لا تحتاج لوعدي هذا.. منذ متى لم أكن عونك وسرك ورفيقة عمرك؟!

يربت على يدها، وابتسامة تحمل نكدًا كبيرًا ترتسم على وجهه.. ويقص عليها..

...

حين انتهى، عم الصمت.. لا ترد. ولا بكلمة واحدة.. ما قفز إلى ذهنها هو أن يطلقها.. لكن كيف، وأبوها الآن في حاجة للمال لعلاجه، وهي قد تركت العمل منذ سنوات طويلة.. وبعد قليل، سيتركها كذلك وليس لها أحد. لكن موافقتها مستحيلة.. أليس هذا حرام؟!

يتنهد، ويقطع ثائرة تفكيرها بكلمات محبَطة يحاول أن يبدو بها متقبلا لرفضها، أو يحاول استدرار تعاطفها وموافقتها، لا تدري تحديدًا.. وربما هو نفسه لا يدري كذلك. تطيل النظر إليه.. حتى يخيّل إليها أنها، وهو، يغوصان في دوامة ليست هنا.

يمد يده إليها.. جامدة هي لا تهتم.. يتضاءل.. إنه يصغر لا يغوص.. وهي.. تشمخ.. تتضخم أمامه.. لكن مع تضخمها، وتضاؤله، يختفي من أمامها، ولا تستطيع أن تراه..

تتغير الصورة.. يتضاءل؛ لكنه يطفو فوق الدوامة.. تتضاءل معه.. يمسك يدها.. تتعلق به.. تختفي الدوامة.. وتحل محلها صحراء مترامية.

- أماني!

تستفيق من خيالاتها.. لطالما كانت تلك الخيالات تزورها في أوقات توترها.. اعتقدت لفترة أنها من وسوسة الجن، وفي فترات أخرى ظنتها بصيرة ترشدها.. لكنها هذه المرة واضحة لا لبس في معناها لديها..

تنظر إليه لبرهة أخرى، وتسأله بهدوء..

- كم ستدفع رجاء لتلك البطن؟

يهز رأسه متسائلا..

- كم ستدفع للبطن التي تأتيها بطفلها؟

- هي تحدثت عن ٢٥٠٠ دولار وحتى سبعة آلاف، على ما أذكر.. لكن فيم تفكرين؟

تتجاهل سؤاله، وتسترسل..

- كيف حللت الفكرة أنت وزوجتك؟ أي حديثٍ كان ذلك؟

يمسك كفها، وهو يسألها بتوجس..

- أماني أرجوكِ.. قولي لي فيم تفكرين؟

لا ترد، وتنظر إليه منتظرة إجابة سؤالها، فيكرر الحديث

أمامها..

تلتفت إليه وهي تتكلم كالمغيّبة..

- إذًا فهذا سعر الأمة يا وليد.. أنا لست أمة.

- أماني..

تشير له بيدها، فيسكت.. تكمل:

- ستحصل على بطن وأمن.. ورضاعة أيضا.. هذا الطفل يجب أن يكون ابني أنا أيضا.. بالبطن.. وبالرضاعة.. بل يجب أن أوافق على اسمه كذلك.

حاول أن يجد ردًا، لكن هيهات.. أماني تحطم كل توقعاته.. تمنى أن يتحجج أمام رجاء برفضها.. تمنى أن تحطم أماني نظرة رجاء الفوقية، وشرائها لكل شيء بأموالها. تمنى من أماني الكثير.. مما لم يستطعه هو.

قاطعت سيل إحباطاته، وأكملت هي في حزم:

- اعرض عليها شروطي.. ولتقابلني لنتفق بغير وسيط.

- أماني!

- تردد اسمي كثيرًا.. لا داعي يا وليد، فلو كنت لا تريد ذلك لما عرضته عليّ.. لكن اعلم..هذه صفقتي أنا، ويجب أن تعرف ذلك قبل أن أخطو فيه خطوة واحدة.

تتنهد وهي من تربت على يده هذه المرة، وتعتدل في جلستها، مبتسمة ابتسامة لم يدرِ أهازئة أم مريرة..

- أنا من تتحمل غربتك، وتربي عيالك وحدها، ومن ستحمل، وتلد، وترضع.. ليس لك في الصفقة شيئا، ولن أشارك بها في ذلك البيت الذي..

قلبت شفتيها، ولم تكمل، فخفض رأسه،ليخفي عينين دامعتين..

- ذلك البيت الحلم.. حلمنا يا أماني.

- لن أجادلك في وجهة نظرك. في نظري أيامنا هنا في بيت والدي، قبل سفرك واتساع أحلامك، حلم بعد حلم، كانت هي زواجنا الحقيقي الذي لم يعد.

يهم بالرد، فتسكته بإشارة من يدها، وهي تهز رأسها..

- اتفق مع رجاء على موعد.. هنا.

- هنا!

تكشر أنيابها، وهي تقول:

- هي من تحتاجني.. إذن هي من تجيئني حتى بيتي.

...

الليل.. والنهر.. والضوضاء التي تشوش رأسه دون أن يفسرها إلى كلمات. جو طالما افتقده، وطالما حن إليه. لكنه الآن يجتهد ليكون جزءًا منه. أصبح غريبًا عن كل البقاع معًا.. في تلك البلاد غريب، يحمل اللقب "مقيم"، رمز الضعف هناك. وهنا أيضا لم يعد جزءًا من هذه الأرض، ولا من هؤلاء الناس..

طبيعي وواقعي أن ينسلخ عنهم.. لا يعاني ما يعانون، فمعاناته أصبحت في شهور غربته.. لا يسمع ما يسمعون، ولا حتى يشارك في اختيار رئيسهم، فحكومته ترى أنه ليس هنا، إذن هو ليس من هنا.

يبتسم.. هم على حق.. هو ليس من هنا.. حين يصل، يسأل عن كل شيء كيف أصبح. حتى ابنه لم ير كيف نما هكذا، وتفاجأ به يطاوله، وقد ودعه العام الماضي، وهي ينحني ليقبل رأسه.

يصل لمرسى القوارب على الكورنيش.. يحن لركوب النهر.. يخرج جنيهاته إلى المراكبي، وينزل إليه.. في عرض النهر يطلب منه إيقاف المحرك. يسترخي، مستعيدًا أيامًا لن تعود.

كانت أماني تعشق النهر.. كلما تيسر لهما أن يهربا قليلا من الأبناء والمسئوليات، وأن يخرجا قليلاً، كانا يركبان قاربًا.. لكن كانا مع الناس وسط ضجيجهم.. لكم تمنت أن يركباه وحدهما في هدوء. هو الآن يركبه في هدوء، لكنها ليست معه. يزفر بصوتٍ عالٍ، فيبدأ المراكبي الفضولي في الثرثرة والسؤال. ماله هو بما به.. هذا الفضول – في رأيه – من أسوأ طبائع هذا الشعب.

انتبه لنفسه عند هذا الحد.. أصبح يقول هم.. ابتسم في حزن، وهو يتذكر كيف كان يحقّر من يتكلم بتلك الصيغة،

ويهاجمه، في التو بأنه واحد من هؤلاء الذين يتحدث عنهم. ربما الآن يفهم أولئك المتنصلين من الجموع.. هو بالفعل لم يعد منهم.. ولم يصبح من الآخرين.. إنه أصبح بلا أرض تأوي منبته.

مرة أخرى يستفزه المراكبي، وهو يغرقه بالنصائح أن لا شيء يستحق، وأن الرجل لا يبكي هكذا.. فوجئ بكونه يبكي، وأفرغ حنقه في الرجل، آمرًا إياه بالعودة للشاطئ.

عاد إلى السير، متلفتا حوله، غارقا أكثر في شعوره بالاغتراب عن كل تلك المدينة.. يفكر ترى أيهما لفظ الآخر! أهو قلبه من لفظها، أم هي من نكرته وأقرت أمرًا واقعًا بأنه ليس منها. يمد بصره لتلك المئذنة القديمة، ربما تكون أثرية، يشعر كأنها تنبض.. للمدن روح بالتأكيد، ليس هناك جماد مطلق.

أحس بقدميه تئنان تحته.. يكتشف أنه أمام الفندق الذي تنزل به رجاء، فيرفع حاجبيه دهشًا أن مشى كل ذلك دون أن يدري.. يدور بعينيه فيما حوله..

- أتراني غريبا عنكِ إلى حد أن يبحث لا وعيي عن رجاء؟!

يكاد يسمع كل ما حوله يضحك منه.. يمسك هاتفه، ليكلم رجاء، ثم يقفل، قبل أن يتم اتصاله. يقهره إحساسه بأنه

يستأذن كي يذهب إليها. ويرتج الأسفلت ضحكا من خطوات الغريب.

...

يدخل البيت متأخرًا.. ترفع عينيها عن ذلك التطريز الذي ترسمه. بدون أي تعليق، أو تحية، تخفض عينيها مجددًا، لتستمر في الرسم بإبرتها وخيطها. عجيب خيالها في التطريز بلا رسم، ليكتشف الرائي ما في رأسها فقط مع إتمامه.

يضع مفاتيحه، ويخلع نعليه، ثم يجلس أمامها متأملاً.. لم تسأله إن كان قد اتفق مع رجاء على موعد، أو ماذا سيستجد في الأمر. هي لن تفعل.. إنها في حالٍ أقرب للاستكشاف لما لا تعرفه فيمن كانت يومًا تعرفه. هو يتمنى أن تسأله، وأن يتكلم بما تحمله نفسه.. وأن يجد عندها وطنه..هي لا تتمنى شيئا، وقد فقدت الوطن!

يمد يده، ليمسك طرف القماش، ويرى ما تشكله بخيوطها الملونة. لا يفسر الرسم، لكن يستغرب ألوانه الحمراء الفاقعة، والسوداء الداكنة، في تداخل لم يستطع معه التكهن بما سيكونه. تنظر إليه، مبتسمة في ثقة أنه لن يخمن ما تخطه ألوانها. كم من مرة تراهنا أنه سيعرف الرسم قبل أن تتم منه شبرًا واحدًا. كم من مرة صرخت، وهو يضحك حين تتحداه، ولكنه يغلبها، ويقرأ رسمتها في مهدها، كأنما يرى معها ما يرسمه

خيالها. تتنهد مع الذكرى،تسحب النسيج من يده، وتستأنف تطريزها في صمت.

- أماني!

- ها..

- أنا لم أكلم رجاء حتى الآن. هل أنتِ متأكدة من قرارك؟

تبتسم بجانب فمها، ولا ترد، أو حتى ترفع عينيها إليه. يكمل:

- لقد قررتِ في وقت صدمتك بما حكيت لك من الأمر.. خذي وقتك للتفكير أكثر قبل أن توافقي، أرجوكِ.

تردد وراءه، فيما بدا له سخرية..

- "قبل أن توافقي"!

يحمر وجهه، هو يقصد قبل أن تقرر، أو قبل أن تتعجل الموافقة. هي بالتأكيد تفهم ذلك، فلماذا تعامله هكذا.

يغضب.. يقوم من أمامها، ليتجه إلى غرفتهما. في عصبية يخلع ملابسه، ويلقيها أرضًا. يستلقي في الفراش، ويناديها.

كعادتها، تلبي.. أتت، فأخذها عنوة.. رأى وجهها كارهًا، فتجاهله.. رأى دمعتها، فمد يده لزر النور يطفئه.. أحسها كجثة باردة تحته، فأتم ما بدأه لنفسه وحده.. لن تجلده هي الأخرى، لن يسمح بأن تتحول أماني رجاءًا ثانية.

حين انتهى، قامت إلى الحمام في هدوء، ثم خرجت إلى

الصالة، تكمل تطريزها في صمت مرة أخرى. وبقى هو في فراشه، يغلي، ويتوعد لمن تتجرأ منهما على إهانة رجولته بعد الآن.

...

وقف وليد بباب المطبخ، يتأمل أماني وهي منهمكة في إعداد كعكة كبيرة، لاستقبال رجاء. نبهت عليه مشددة ألا يشتري أي شيء، قالت أنها ستستقبلها على طريقتها هي، وبلا تدخل منه. أخذه خياله، ليراها تضيف قطرات السم إلى الكعكة.. رجاء وهي تمسك بطنها، وتقع.. ابتسامة التشفي على وجه أماني تصدمه.

- لماذا تقف هكذا؟

انتبه على صوتها تسأله.. نظر إلى يدها الممسكة بقطارة صغيرة، وسألها:

- ما هذا في يدك؟

نظرت إلى وجهه الممتقع، وضحكت..

- لا تخف! ليس سمًا.

- بالطبع ليس سمًا، أنا أسأل فقط ما هو.

تبادلا نظرات متحدية للحظة، ثم أجابته:

- إنه لون صناعي للـــ (كريمة)..

أكملت في تهكم، وهي تشير بيديها كما إعلان تليفزيوني..

- غير ضار بالصحة، ومصنّع من موادٍ طبيعية.

ابتسم رغمًا عنه، تلاقت نظراتهما في شجنٍ للحظةٍ قصيرة، هربت هي منها، والتفتت إلى كعكتها تكمل تزيينها. تنهد هو، وانصرف إلى الشرفة، حيث وقف شاردًا، منتظرًا حضور رجاء.

.....

تهز قدمها في عصبية.. تنظر إليه متنمرة.. كالوحش الحبيس العاجز، يضيق صدرها، ولا تستطيع الاعتراض.

يحاول تهدئتها..

- ما الفارق يا رجاء بين أي مكانٍ وآخر؟ ما يهمك هو أنها وافقت مبدئيا على ما تتمنينه.. عن نفسي لم أكن أتوقع موافقتها.

تنزل ساقها من فوق الأخرى، وتضع كفيها فوق ركبتيها في تحفزٍ، وتنظر في عينيه مباشرة..

- بالتأكيد كانت ستوافق..

- أنت لا تعرفينها يا رجاء.

- بل يبدو أنك أنت من لا تعرف الناس والدنيا.. افهم، فقط أرادت مزيدًا من المال.

قامت من مكانها تدور حول نفسها جيئة وذهابا.. تقول من بين أسنانها:

- كيف تجرؤ؟!

يقلب شفتيه، وقد بلغ الضجر آخره في نفسه:

- بصراحة، أنتِ من تحتاجينها، وعليك أن تتحملي شروطها، لتحصلي على بغيتك.

تصرخ في وجهه:

- غيرها يتمنين الفرصة.

- إذًا، لا تذهبي، وابحثي عن غيرها.

يحمر وجهها؛ لكن لا تملك إلا أن تتركه، وتصعد إلى غرفتها، مطلقة بعض السباب، غير عابئة بالتفات الجالسين بصالة الفندق إليها، وإليه. يتنهد.. لا يعبأ هو الآخر بمن حوله، فالكل لا يعنيه، وهو لا يعني أحد.

...

- وليد!

يلتفت إليها، فتخبره أن ينتبه للباب، لأنها ستدخل لتغيير ملابسها. يتساءل عما ستلبس، فتبتسم، وتهز كتفيها مطلقة كلمة واحدة "عادي".. يبتسم هو الآخر.. ويعشق قوتها.

يدق الجرس، فيذهب، ليفتح الباب. رائحة العطر تصله قبل أن يفتح، فيهز رأسه أن لا فائدة. يهمس لنفسه "لقاء الجبابرة"، يفتح الباب، فتدخل دون انتظار، تتلفت حولها، تختار الأريكة لتجلس بركنها ممدة ساقيها أمامها، وتأخذ في تفحص المكان.

يمر أبو أماني خارجا من الحمام، متوكئا على مشّايته.. ينظر ناحيتها، ويلقي السلام، ويكمل طريقه إلى حجرته، ويغلق الباب وراءه.

تهم بسؤاله عن أماني، لتتهمها بالصلف والتأخر في استقبال ضيفتها، فتجدها أمامها قبل أن تنطق كلمة. تلجمها ابتسامتها، ووجهها الخالي من ألوان الزينة، وبنطالها الجينز، والقميص القطني، والسلسلة الفضية في رقبتها. تتصافحان دون كلمة، وتختار أماني كرسيا خشبيا (خيرزان) لتجلس عليه. ترمق رجاء وليدًا، فتغيظها نظرة الإعجاب التي يطالع بها أماني، وترمقه أماني، فتحتقر صغره أمام رجاء.

تبدأ أماني بالكلام في أسلوب عملي مباشر:

- هل أحضر الكعكة الآن، أم نؤجلها للاحتفال بالتراضي على اتفاق؟

لا تستطيع رجاء إلا أن يعجبها أسلوب ضرتها، تلتفت إلى وليد، فتجده يعبث في مسبحة صغيرة بأصابعه، تلتفت إلى أماني، وترد بابتسامة مصطنعة، محاولة مجاراة أسلوبها:

- شروطك؟

تهز رأسها وهي تنظر إلى الأرض تحتها، عاقدةً حاجبيها في جد..

- أولا: كل الأمر سيتم هنا، في مصر..

تقاطعها رجاء معترضة:

- لا لا لا.. هناك إمكانيات أفضل، وبدون مشاكل مع القوانين.

- لن تكون هناك مشاكل مع القوانين يا رجاء. سنستخدم اسمك من البداية للنهاية، وأعتقد هذا يضمن لك حقك في الطفل.

تصمت مفكرةً، فتضيف أماني:

- دعيني أكمل لك الصورة أيضًا.. أنا لن أترك والدي، فهو كما رأيته، يحتاج رعاية كبيرة. ثم إن هناك لن يسمحوا بتزوير اسمك، لتكوني أنتِ من حملتِ بالطفل، بينما هنا ليس علينا إلا النقاب، ليعاملنا الطبيب كواحدة، ثم يمكننا أيضا الولادة مع طبيب آخر، لا يدري عن الأمر شيئًا.

يبدو على رجاء بعض الميل للرأي، لكن تعود فتسأل:

- لكن أليست النتائج هنا أقل نجاحًا؟

ترد أماني في ثقة:

- إطلاقا.. توجد مراكز كثيرة تحقق نفس النسب العالمية.

- فليكن.. ماذا أيضا؟

- سأختار اسم الطفل معك.

ترد بتحد:

- سأسمه طلال.

تحدق فيها للحظة، ثم تميل برأسها قليلا، وتقول:

- لا مانع.. اسم ظريف.. لكن ربما تكون بنتًا.

تلوي رجاء شفتيها، وقد غاظها أسلوب أماني، التي تتجاهلها وتكمل:

- وسأكون أمه بالرضاعة.. سيبقى معي حتى فطامه، وعليكِ أن تجدي الوسيلة والمبرر لبقائه معي، فهذه مشكلتك أنتِ.

- لا لا لا هذا كثير يا امرأة.. ثم إن الطفل سيكون باسمي، ولي أن آخذه لبلده.

تتبع كلامها بنظرة نارية، وهي تكمل:

- إن ما لكِ الاشتراط فيه هو سعرك، أما ما عدا ذلك فلا تتمادي في استعراض قوتك، أو محاولة استغلالي.

يترقب وليد رد أماني، ويشعر أن الحرب لم تعد باردةً، والاشتعال بات محتومًا. لكن أماني تحتفظ بهدوئها تمامًا وهي ترد:

- الطفل باسمك، ذلك يعطيك قوة.. الشهود حين الولادة سيرونني أنا، تلك نقطة تفوقي. لا تنسي أنك لن تجي تلك الشوشرة لدى أهلك — ورثتك!

- خايسة

تهمس بها من بين أسنانها، فينتفض وليد متأهبا، وترفع أماني

إصبعها محذرةً. ترمق وليد، ثم رجاء، وتبتسم وهي تهم للوقوف، قائلة:

- أعتقد أنه آن وقت الاحتفال.

تصيح بها رجاء، ناسية أنها هي الضيفة هنا:

- من قال أني وافقت على هذا العبث؟!

تتراجع حدتها خاشية أن تخسر أملها، فتكمل:

- ثم إنك لم تحددي سعرك بعد..

تنظر أماني لوليد.. تترقرق في عينها دمعة تختفي سريعا دون أن تسقط، ثم تستدير متجهة إلى مطبخها دون أن ترد.

في المطبخ، تسمع مناوشات، حرصا فيها ألا يعلو صوتهما. لم تهتم بما يقولان، وحملت الصينية عليها الكعكة، والأطباق، وخرجت إليهما، وعلى وجهها جمود لا تحاول إخفاءه.

يطوف نفس الهاجس برأس وليد، حتى ليهم بتحذير رجاء من الأكل منها.. يتابع السكين في يد أماني يقطع الكعكة، وعيناه مفتوحتان عن آخرهما.. هي أيضًا تشعر بالسكين يقطع الكعكة تأبينًا لعلاقة بدأت بكعكة أخرى، وفرحة لم تعد هنا.. رجاء تتابع السكينٍ، وتطلب قطعة معيّنة تحمل فوقها الفاكهة المحببة إليها، لا تدري بعوالج نفسين غيّر وجودها في حياتهما كل حياتهما.

يلتفت وليد بوجهه متابعًا الطبق في يد أماني، متجها لرجاء،

وهو يعلم أنها لن تقاوم مثل تلك الكعكة. يراقبها وهي تأكل، حتى يجدها تصيح به، وأماني تضحك، وتمد يدها إليه بطبق.

يأخذه من يدها، وتقول له، كأنما تقرأ أفكاره:

- لا مانع من أن آخذ قطعة أنا أيضًا، فاليوم إجازة الـــ (ريجيم)، والكعكة مغرية.

تقول رجاء في هم:

- أنا لست على (ريجيم) فلا مانع لي من قطعة أخرى.

تبتسم أماني قائلة:

- بالطبع.. البيت بيتك، فأنت زوجة زوجي، وأم ولدي.

تتوقف الشوكة في يد رجاء، تنظر إلى أماني محاولةً أن تفهم ما وراء عبارتها، أسخرية أم تودد.. تتنهد كلتاهما في نفس اللحظة، فتبتسمان معًا.

تسألها رجاء، بلهجة أنعم كثيرًا مما أتت به في البداية:

- لم تحددي بعد يا أماني، فدعينا نكمل الاتفاق.

تبتسم أماني مرة أخرى، وتقول وهي تعبث بشوكتها بقطعة الكعكة بطبقها:

- أللمرأة أجرٌ عن حمل ابنها؟!

يحمر وجه وليد، وتسقط رجاء الـــ (كريمة) على ثيابها، وقد ألجمهما آخر ردٍ يتوقعانه.

في صالة الفندق يجلسان، وليد، ورجاء، مجددًا، وهي لا تكف عن الكلام، وهو بالكاد يبحث عن ردٍ يحاول إقناع نفسه به قبلها.. هي تصر أن وراء كلام أماني شيئا مخفيًا تضمره، وهو ينكر ذلك لفظًا، لكن ألف تساؤل يدور في نفسه. تسأله في قلق:

- هل يمكن أن تأخذ الولد لنفسها؟

يطلق ضحكة قصيرة هازئة، ولا يعلق، فيستفز غضبها..

- لست غبية، ولا خيالية يا وليد، لكن أنا متأكدة أن لها غرض مما فعلت. ألا توافقني أن قرارها غير طبيعي؟

- بالتأكيد هو قرار غريب.. عنك، وعني.. لكن من أماني لا أستغربه.. صدقيني إذ أقول لك أنك أنتِ أيضًا لا تعرفين الكثير في الدنيا – يرفع يده، ويستطرد، لإسكاتها- مثلي يا رجاء.

تمنى لو يقول لها أنها لا تعرف الأحرار كثيرًا. اعتادت أن ترى الـــ (المقيمين) بأخلاق العبيد، ومن ليس كذلك، فإما يفر بلا عودة، أو يقاسي بلا نهاية، ويوصم بالمشاغبة، وسوء الخلق، حتى يتم إنهاء عقده (تفنيشه كما يقولونها).

تركها تثرثر، وتأكل في نفسها، وعاد إلى البيت.. لم يجد أماني في الصالة – كما اعتادت – ووجد الأولاد يشاهدون فيلما ساخرًا، متعاليةً ضحكاتهم معه. يشعر أنه لا يستطيع

الكلام معها الآن.. جلس بجوار "عمر" – أكبرهم- وبدأ يتابع.. ارتفع ضحكهم كثيرا.. انطلقت التعليقات منهم تشي بسذاجة عمرهم الغض.. التقت الأكف مفرقعة في مرح.. ظل معهم، يضحك من قلبه، حتى فوجئ بكلمة النهاية، وبابنته تقوم لتحتضنه بقوة، قبل أن تقول له:"تصبح على خير" وتذهب مع إخوتها للنوم.

استرخى على الأريكة، لا يريد أن يفكر في أي شيء. أحب حضن الابنة..إحساس، غريب عليه، ملأه، وأمتعه، حتى أراد ألا يقتل اللحظة بأي فكرة، مهما بلغت أهميتها. أسند رأسه للخلف مغمضًا عينيه، والابتسامة قد التصقت بشفتيه في شوق، بعد غياب طويل.. ونام في مكانه.

...

خلال أيام، في هدوء شديد، وسلاسة، استسلمت أماني لبعض الفحوصات تحت اسم رجاء. كان لابد من ذلك لاستبدال صورة رحم رجاء برحم سليم يصلح للتلقيح. وأخيرًا تم أخذ بويضات رجاء، وخلايا وليد. وفي انتظار قرار المعمل بتكوين الأجنة، كانت أماني تبيت في حجرة أبيها، لا تكاد تكلم أو ترى وليد. هو كان يقدِّر ما هي فيه.. أو ربما يتحجج بذلك..

أحيانا يود لو يسألها لماذا أبت المال. يسمعها في خياله ترد:

" لست أمة"..

يرد عليها: "لكن كان المبلغ يكفي ألاّ أظل عبدًا".

يشعر بأنانيته، لكن هو تعوّد منها عطاءها، فلماذا تحبسه عنه الآن بعد أن كاد يعتبره حقًا؟!.. يحمر وجهه، وهو يواجه نفسه بالرد.. لكن يأبى أن يسمع ضميره ينبئه به كاملاً، فيبحث عما يقاطع تفكيره به.

هي تجاور أباها ليل نهار.. لا تدري لماذا تشعر بأنه سيغيب عنها قريبًا.. توسوس لها خيالاتها صورته غاضبًا، يخبرها أنه لن يبقى معها وهي تفعل فعلتها تلك. يعود فيناديها: "يا ابنتي!".. يحاول إقناعها أن تتراجع.. يضجر بصمتها، فيطلب منها سؤال أهل الفتوى. تفيق، لتجده في فراشه، غائبا عن الوعي، بالكاد يفتح عينيه وقت الطعام. تهمس له:

"استفت قلبك وإن أفتوك يا أبي"..

ينظر إليها في غير فهم، أو ربما في غير وعي، لا تدري، لكنها تبتسم له مطمئنة، وتتركه يعود لغيبوبته.

تقرر أخيرًا الحديث مع وليد. تخرج إليه، وهو بين أبنائه يتضاحكون، فتراقب سعادتهم به بابتسامة هادئة للحظة، قبل أن تقطع ضحكاتهم بسؤالها:

- هل أخبرتهم؟

يعم الصمت، ويتجهم وجهه، بينما يلتفتون إليه متسائلين.

يقوم إليها،فيأخذ ذراعها، ويدفعها برفق إلى حجرة أبيها، الأقرب، ويهمس مندهشا:

- كيف؟

- كيف ستقول لهم؟! صعب؟! وكيف ستقول لهم إذًا، حين يجدونني أعطي أخاهم لزوجة أبيهم؟!

يبهت.. لم يفكر في ذلك على الإطلاق.. يرمي بجسده، الذي يشعر به أثقل من جسد ذلك العجوز المشلول الملقى في فراشه، على أقرب كرسي. يرفع يده في تساؤل..

- كيف يُقحم أطفال، في عمرهم، في أمرٍ كهذا؟

ترفع حاجبيها في دهشة، واستنكار..

- ألم تدبر ذلك ضمن تخطيطك؟ - تهز رأسها مؤكدة — هذا ليس دوري يا وليد.. إنها مسئوليتك وحدك.

تزفر بشدة، وتجلس على حافة فراش أبيها، تنظر إلى لا شيء، وتهز رأسها قائلةً:

- فيمَ فكرت إذًا؟!.. ليس سوى موافقتي؟ ليس سوى ما تريده رجاء؟.. لم يطف بذهنك أي اعتبار، ولا حتى لأبنائك؟!

يتابعها ولا يجد ما يقول.. تستدير نحو والدها تتصنع إحكام الغطاء حوله، وهي تقول في هدوء الموت:

- لا تعتقد أنني طيبة إلى هذا الحد يا حبيبي. أنت من يجب أن تتحمل الأمر كاملاً أمام أبنائك. أنت لن تحصل على جنيه

واحد جراء تلك الصفقة الكريهة، ويكفيك أن سترضى رجاء الاستمرار معك، أنت من رضيت بألا تكون سيدًا — لا مع رجاء من البداية، ولا معي أنا أيضًا منذ....

تتنهد، وتكمل..

– أما رجاء ، التي ربما تحاول الثأر لكرامتها بعد زيجتها الأولى.. فبيننا أيام طويلة لا يدري إلا الله ما يكون فيها.

ينظر إليها وقد باغتته صدمته في أفكارها.. يسألها صادقًا، غير مصدق:

– أأنتِ أماني؟

لا تملك أمرها، فيعلو صوتها صارخًا فيه:

– أأنت وليد؟

يلتفتان معًا إلى "سنا" — ابنتهما- عند الباب، تسأل عمَا بهما، بينما يرتفع صوت الشيخ ينادي ابنته، وقد ملأ الزَبَد فمه، وبدا أنه يحتضر.

...

دخلت رجاء من الباب المفتوح للشقة يسبقها عطرها، وتلفت زينتها الأعين المستنكرة، رغم ثوبها الأسود. وقفت قليلا تبحث بعينيها عن أماني بين النساء الجالسات. لمحتها أماني فقامت إليها. تصافحتا، وتمتمت رجاء بعبارة عزاء قصيرة، ردت عليها أماني رافعة عنها الحرج..

- هل اتصل بكِ المعمل؟

فوجئت رجاء بالسؤال، لكنها تنهدت في راحة، فقلقها كان عارمًا، خاصة بعد أن بشرها المعمل بتكوين ستة أجنة. أومأت أن نعم. فسألتها مقتضبة:

- متى؟

- بعد غد.

- ستمرين عليّ لأخذي ووليد بسيارتك.

رفعت حاجبيها استنكارًا وهي تهمس:

- لا يجب أن يرونا معًا يا أماني!

- أتريدين فنجانًا من القهوة؟

احمر وجهها، واستدارت منصرفة، حين وجدت وليد عند باب الشقة، وقد عاد من الدفن. وقفت لتهمس إليه، فإذا بصوت أماني تنادي أبناءها ليسلموا على زوجة أبيهم، ثم خفضت صوتها وتمتمت..

- وربما أم أخيكم.

فوجئت رجاء مرة أخرى، وهمّت بالإسراع منصرفة، فأمسك وليد ذراعها، وهو يهز رأسه لائمًا. اقترب الأطفال يصافحونها، وابتسامة طبيعية على وجوههم أجبرتها على مبادلتهم الابتسام. رفعت عينها إلى ضرّتها لحظة، ثم غطت وجهها بنظارتها الشمسية الضخمة، وأسرعت إلى السلم قبل

مزيدٍ – قد لا تحتمله – من مفاجآت تلك المرأة العجيبة.

...

جلست أمام مرآتها شاردة.. أمسكت بزجاجة عطر عربي، وضغطتها مرات مستنشقة رائحته القوية. اقتربت من مرآتها أكثر، فاتحةً عينيها عن آخرهما، متأملةً في وجهها، وهي تحس أن شيئًا ما غريبًا يسكنه. أخذت تهز رأسها بالنفي..

" لا..لا.. لا.... ليست طبيعية، ولا منطقية، ولا مفهومة!"

تلتقط عينها هاتفها الملقى فوق الفراش، فتهب إليه، وتضغط رقم وليد..

– تعالى الآن.. فورًا!

– ماذا حدث؟

تصرخ به:

– قلت لك تعالى والآن دون تأخير.

– كيف يا رجاء؟! أبوها مات فجر اليوم، وأتركها وآتيكِ!

تصمت لبرهة تكتشف فيها أنه محق.. تغلق الهاتف دون كلمة، وتطيح به إلى الفراش مرة أخرى. تشعر كأنها عفريت المصباح، الذي يستعبده من يستطيع تحريره.. بالأمس القريب كانت تدلل خادمتها، والآن تلك الضرة المرة تتلاعب بأعصابها، وتمتهن ذكاءها ومالها كإعصار من مكرٍ وكرامةٍ معا. تستعيد كل كلمة دارت بينهما.. وأخيرًا، تستسلم لنوبةٍ بكاء

طويلة مشفقة على نفسها من ذل الحاجة.

...

يقترب وليد من أماني وهي محنية تخلع جوربها. يحتضن كتفها بذراعه، فتقوم لتتأمل عينيه لحظةً، ثم تسلم رأسها لصدره، وتترك دمعاتها التي حبستها منذ بداية اليوم. يجلسها إلى حافة الفراش وهو إلى جوارها، ولا يجد الكلمات.

تتكلم هي كثيرًا.. تشتكيه كثيرا.. تحكي عن شوقها إلى أشياء تفتقدها.. ولا يخرج صوتها بحرف من كل ذلك. تتنهد وتكتفي بحضن لن تكف عن الحاجة إليه؛ رغم إنه لم يعد ما تتمناه.

دقائق قليلة فقط، ثم مدت يدها إلى علبة المناديل الورقية، فسحبت أحدها لتمسح أنفها، وتبادره:

- موعد العملية بعد غد.

يتساءل صادقًا وقد أنسته الأحداث الأمر:

- أي عملية؟

تبتسم في ضيق:

- حقن أجنتك إلى رحمي.

يحمر وجهه، ويكاد يزجرها لولا أن أدرك أن الأصح أن تفعل هي..

- أماني.. لو أنك غير مستعدة للأمر الآن، فلا داعي.. بل

حتى لا داعي نهائيًا طالما يثقلك.

تهز كتفيها بتعبير اللامبالاة.. تفكر للحظة في صمت، ثم تقول شاردةً:

- فكرت فيها أنها كالرضاعة.. الوليد يتكون من أخرى غير أمه.

تتنهد..

- وربما أنا أحق بأن أكون أم ابنك من خادمة تورِّثه. أليس الحديث لا تسترضعوا الحمقاء فإنها تورث؟ فما بالك بالرحم!

ترفع رأسها لسقف الحجرة، شاردة في لا شيء، ثم تقول كأنما تهمس لنفسها:

- أنا أعذرها يا وليد. هي مسكينة، تسعى لرد كرامة ذبحتها زيجتها الأولى.. لو لم أكن أشفق عليها، لما وافقت.

تلتفت إليه مؤكدة:

- لا تنسَ أن تطلب منها العباءة التي ذهبت بها للطبيب وأن تملأها بنفس العطر الذي كانت تضعه وقتها.

يبتسم لها.. يريد أن يقول لها كم يحبها.. كم يفخر بها.. وكم يستند إليها. لكنه هو الآخر لا يقول كلمة من كل ذلك.. يخاف.. يخاف أن يصغر هو إلى جوارها.. بالتأكيد أن خيوط وصل كثيرة قد ضاعت بينهما.. للأسف.

بدلاً من ذلك يسألها:

- كنت أريد أن أسألك عن رجاء.

تعقد حاجبيها متسائلة، من منهما يمكنه سؤال الآخر عنها!.. يكمل:

- رغم مسألة الشفقة.. أتستحق أن تحملي طفلها بلا مقابل؟

يظهر الغضب على وجهها، فيسارع مقاطعًا قبل أن تبدأ:

- لست أتكلم عن المال، وصدقيني لم أعد أربطه بالموضوع..

يشير بكفيه..

- أعترف أني كنت أجدها فرصة،، لأتحرر من قيد الأقساط والبناء، وتلك الالتزامات التي تخنقني. لكنني نسيت ذلك الآن صدقيني.. أنا أسأل عن الأمر بينك وبينها.

ثبتت عينيها بعينيه، وردت بهدوء:

- إنه بيني وبينك!

تلجمه إجابتها.. دومًا قادرة على إنهاء النقاش بجملة حاسمة. يسمعان الأولاد يضحكون أمام التلفاز، يهم وليد بالخروج إليهم، فالظرف غير مناسب للتلفاز والضحك، لكن تجذبه أماني مشيرةً أن دعهم.

...

جلست في سيارتها تجز على أسنانها منتظرة نزولهما، تدق بأصابعها على عجلة القيادة بعصبية لاعنة الزمن الذي جعلها سوّاقة لوليد وامرأته. يظهران عند مدخل البناية، فترسم ابتسامة على شفتيها، بينما تخفي نظارتها الشمسية ما بعينيها من غيظ. يقف وليد مرتبكًا، وقد حار أين يركب، فالتفتت إليه أماني، وشبح ابتسامة يمسح وجهها الهادئ، ودارت حول السيارة، لتفتح الباب، وتركب إلى جوار رجاء، فينفخ مصفّرًا مرتاحًا لذلك، ويركب بالخلف.

تلتفت إلى رجاء، فتلقي التحية عليها. تسألها بعض الأسئلة لتؤكد ما ستقوله للطبيب إن أعاد سؤالها بها لتتوحد إجاباتهما، ثم تلقي برأسها للخلف، وتغمض عينيها.

...

- ستفعلين؟
- نعم يا أبي.
- سألتِ؟
- استفتِ قلبك.
- قلبكِ مع وليد، لا مع الحق.
- وليد زوجي.. وليد هو الحق يا أبي.
- أماني.. استفتِ قلبك!

...

ترفع رأسها فجأة، فاتحة عينيها، لتجد المستشفى يبدو من بعيد، وتشعر بقلبها يضرب صدرها بشدة. تترقب للحظات، ورجاء تركن السيارة ليترلا، فتهمس لنفسها أن قد قضي الأمر.

تترل، يترل وليد أيضا حاملا حقيبتها الصغيرة، ويمسك بيدها، ليدخلا دون أن يلتفت إلى رجاء، وهو يشعر بانفعال كلتيهما، فينسى رجاء قليلا، ويقبض على كف أماني المبتل عرقًا.

يتوجها إلى استقبال المستشفى. تتابعهما رجاء حتى تراهما يوقعان بعض الأوراق، ويتجهان إلى المصعد. تردد الدعاء من قلبها:

- يا رب يا رب .. لا تجعلني أعيش ذلك الإحباط ثانية.. يا ربي لا أطلب سوى طفل واحد.

تتراجع لبرهة..

- فإن أذنت بأكثر فأنت كريم

تضحك من نفسها.. تتكلم بصوت أعلى:

- ومالي لا أطمع!.. في الله يمكننا الطمع دائمًا.

تدير السيارة، وتعود إلى الفندق لتنتظر اتصالا من وليد، لا تريد أن تستقبل سواه.. وسرعان ما أتى.

ترد بلهفة:

- وليد!

- نعم.. خرجت منذ دقائق.

- بهذه السرعة؟ كنتم أول الموجودين؟

- نعم.. وكانت سهلة حسب كلام الطبيب.

تكاد تبكي، وهي تقبض كفها منفعلة..

- الحمد لله.. الحمد لله.. لا تدعها تتحرك نهائيًا، يمكنني استئجار خادمة لها.. يمكن..

يقاطعها:

- سأذهب إليها الآن.. هي لا تحتاج خادمة؛ لكنها نفسيًا متعبة.

- لا لا لا.. هذا خطر.. اسعدها بكل طريقة.. هات لها.. وليد.. وليد!

هل انقطع الخط، أم هو أغلقه؟ احمر وجهها غيظًا، لكن أخذت تهدئ نفسها..

لا بأس.. لا بأس.. سيكون كل شيء على ما يرام.

تنتبه للأمر.. إنها لم تحاول الاطمئنان على أماني.. تعود فتهوِّن الأمر على نفسها، وتحاول الاقتناع أنها ستصلح ذلك بهدايا كثيرة لها ولأطفالها.

...

تفيق أماني من غفوة قصيرة، لتجد وليد بجانبها محتضنا كفها بيديه. تنهض نصف جالسة، وتحاول الابتسام فلا تستطيع، وتفر من عينها دمعة.

يهمس إليها:

- لماذا يا أماني؟ لو أنك لا تقبلين الأمر إلى هذه الدرجة، فلماذا؟

تهز رأسها نافية أن يكون الأمر كذلك..

- إنه لا يتركني يا وليد

يهز رأسه غير فاهم..

- أبي.. حتى أثناء التلقيح كان معي!

يمسح على رأسها مواسيًا..

- حبيبتي.. رحمه الله!

تنهار دمعاتها، وصوتها يخرج مختنقًا..

- من قبل أن يموت، وهو يرفض ما أفعل.

- هل أخبرته بالأمر؟

تهز رأسها نافية..

ينظر إليها في شك.. هل أثر كل هذا الضغط المتتالي عليها؟ هل هي تهلوس؟

تبتسم في مرارة كأنما قرأت وساوسه..

- لم أجن بعد!

يسألها في حنان، وهو يحيطها بذراعه جاذبا إياها إلى صدره..

- مالك يا حبيبتي؟ احكِ لي..

- إنه لا يرضى عن هذا الحمل.. وهو في غيبوبته كان يهتف لي.. ونحن قادمون للمستشفى يؤنبني.. والآن في غفوتي هذه يبكي.. يبكي غضبًا مني يا وليد.

أخذت في النهنهة، حتى خاف عليها، وتركها، وخرج يطلب من الممرضة سؤال الطبيب عن إمكانية إعطائها مهدئًا. ذهبت معه لترى حالتها، وبعد قليل دخلت عليهما، وأعطتها بعض الأقراص. نظر إليها وليد متسائلا، فأومأت برأسها، فحمد الله أن لم تسألها أماني عن طبيعة الدواء، كعادتها.

ما هي إلا ربع الساعة، وغطت أماني في نوم عميق، واسترخى هو في كرسيه مغمضًا عينيه.

...

كانت الثامنة مساءً حين استيقظت. التفتت حولها متعجبة من الظلام، تساءلت عن الوقت، وتلفتت حولها، فرأته نائما في كرسيه بجوارها. ابتسمت حانية وهي لا تكاد تستوعب الزمان أو المكان أو الحدث.

مدت يدها تلف الساعة حول معصمه برفق، لترى كم أمست. فتح عينيه فزعا، فربتت على يده مطمئنة.

- كم الساعة؟

ينظر في ساعته، ويجيبها:

- الثامنة وعشر.. صح النوم.

تبتسم، ثم تهم فجأة في فراشها..

- وليد.. الأولاد بالتأكيد قلقون.. هل اتصلت بهم؟

- لا.. سأتصل حالا.. لقد نمت أنا الآخر.

تعبث بخصلات شعرها في حركة اعتيادية، وتقول:

- أنا لا أدري كيف نمت هكذا.. وكل هذا الوقت.. لم يحدث ذلك منذ الكثير.

- دون أن تغضبي؟ لقد طلبت منهم إعطاءكِ مهدئًا.

تتنهد بعمق وتسند رأسها الثقيل إلى الوسادة خلفها..

- لن أغضب.. بالفعل كنت أحتاجه.. كنت أكاد أنهار.

تغمض عينيها، وتكمل..

- أنت لا تصدقني أن أبي معترض؟ اعتقدت أني أهلوس، أليس كذلك؟

يقوم من كرسيه، ويعدل ملابسه قائلا:

- ليس هذا وقت الكلام في ذلك.. فقط حاولي أن لا تشغلي بالك بأي شيء وتنامي قدر الإمكان.. مضطر لتركك لأذهب للأولاد.

تهز رأسها موافقة..

- نعم.. ولا تنس أن تفهمهم ما يحدث.. ابحث عن أي صيغة يا وليد..

يختنق صوتها..

- لن يمكنني الدخول عليهم غدا إلا وهم يعرفون ما يحدث.

يعض شفته، وقد عقد حاجبيه..

- لا أدري كيف سأشرح لهم، الأمر أكبر من سنهم كثيرًا.

- الموقف سيتعقد أكثر كلما مر الوقت.. هل تتخيل أن يتعلقوا ببطني، وينتظروا جنينها، ثم يجدونني أتخلى عن الطفل لبيت آخر؟

- أفهم يا أماني طبعا.. أفهم.. أعدك أنني سأخبرهم الليلة.

تهز رأسها في صمت، فيقبلها برقة في شفتيها، فترتعش. يبتسم لها في حنان، ويلقي إليها بالسلام، ويخرج مغلقا الباب وراءه.

...

في اليوم التالي مر الطبيب على أماني، ابتسم مستبشرا باستقرار حالها، وكتب لها إذن الخروج، وورقة العلاج الذي ستستمر عليه لحين تحليل الحمل. وقف ينظر لوجهها لبرهة، فوضعت كفها كأنما تظلله من الشمس، وابتسمت قائلة:

- دكتور.. لا تنس أني منقبة.

ضحك الطبيب مقهقها..

- أنت مريضتي يا رجاء.

أخد وليد بيدها يعينها على لبس العباءة، والطبيب يميل على أذنه، ليهمس إليه متفكهًا:

- قل لزوجتك النقاب يناقض ذلك العطر القوي الذي لا تتخلى عنه.

خرج من الحجرة وهو لا يزال يضحك. التفتت إليه أماني متسائلة، فأخبرها بما قال، فضحكت هي الأخرى.

كانت رجاء تنتظرهما في الخارج، وقد وقفت بجوار السيارة في انفعال. بالأمس اتصلت بوليد لتخبره أنها ستأتي لأخذ أماني، فلا داعي لحضوره، لكنه أصر على المجيء. لا تنكر أنها تشعر بالغيرة منها.. تعرف أنها الأجمل، أصولها الإيرانية تطبع من الجمال الملون المحبب للرجال على وجهها، وأنها الأغنى، والأقوى سيطرة على وليد. لكن تظل ضرتها أقرب لقلبه. حتى وإن كانت زيجتها به قائمة على مصلحة، يظل زوجها، وتؤلمها الغيرة.

تطرد تلك الأفكار من رأسها — على الأقل مؤقتا — فعليها أن تحب أماني الآن أكثر من أي مخلوق آخر.. إنها تحمل — بإذن الله — أحب مخلوق إليها على وجه الأرض. تقشعر للفكرة، وتبتهل لله تمام الأمر بنجاح.

تراهما خارجين من المستشفى، فتقبل عليهما، وتحتضن

أماني، التي تبتسم، وتربت على ظهرها في ود. كم تشعر بأملها وفرحتها، فتزداد إشفاقا عليها، وتحتجب اعتراضاتها على الأمر.

يركبون، أماني في الكرسي الأمامي إلى جوار رجاء هذه المرة أيضا. لا تكف رجاء عن نصائحها طوال الوقت. حين يصلوا أسفل البناية، يمسك وليد بكتف رجاء من الخلف، ويطلب منها ألا تصعد معهما الآن.. يوضح لها أكثر أن أمامهما موقفًا ليس سهلا مع أولادهم لن يمكن أن تتواجد فيه. تهز رأسها متفهمة، تسأله أخذ أكياس الهدايا من حقيبة السيارة، فيهز رأسه رافضًا..

- ليس الآن يا رجاء.. بعض الوقت ثم تأتيهم بها بنفسك.

يبتسم لها، ويترجل من السيارة، ثم يرسل لها قبلة في الهواء، ويقول:

- أتصدقيني لو أقول لك أني أحبك؟

تبتسم.. تتمنى أن تصدقه.. تدمع عيناها، فتمسحهما سريعا، وتنطلق بالسيارة.

...

يدخلان البيت، فيجدا الأطفال يشاهدون التلفاز. فقط يلتفتون إليهما، ثم يعودون لمتابعة البرنامج في سأم واضح على وجوهم. تتلاقى أعين وليد وأماني، فيدفعها برفق لتدخل، ويتوجه بها إلى حجرتهما. ترتكن إلى حافة الفراش، وتسأله:

– لم يقبلوا الأمر؟

يتدفق دمعها بغزارة تعكس حزنها الذي نست معه أي شفقة تجاه رجاء. أبناؤها الآن أهم.. لا تدري ماذا يمكن لها أن تفعل.. لقد وضعوه برحمها بالفعل.

تغلق عينيها بشدة، وتقول في إصرار:

– لو لم تقنعهم بالرضا عن الأمر، فلن أكمله.. مهما كلفني ذلك.

– اهدئي يا أماني.. هم اقتنعوا بالأمس.. فقط لا يزال صعبا عليهم.

ترفع عينيها إليه.. تشك كثيرًا في قدرته على إقناعهم.. بل تشك أنهم في الأصل مقتنعون به هو نفسه في حياتهم، وهو ليس فيها أكثر من شهر كل عام، ومكالمات في عيد ميلاد كل منهم. هو أيضا يبدو أنه لا يعرف كيف يصل إليهم.. كلامه عن كونهم أصغر من أن يشرح لهم يعكس عدم تقديره لمداركهم.. يظنهم جميعا الصغيرة سنا.

على ذكرها تجدها تدخل إليها وهي تجري، لترتمي بحضنها، فتكاد تلقيها بالفراش. ينهرها وليد أن لا يصح هكذا، ممنوع. تنظر إليه أماني بحدة..

– لا تنهرها هكذا!

يرفع حاجبيه غير مصدق..

- أتلومينني أمامها؟

- ألا تشعر أنها أول مرة تفتقدني يوما وليلة بكاملهما؟

- كنت معها يا أماني، ونامت بجواري.

- أنت بالنسبة لها...

يحمر وجهه، فتنتبه لكلماتها.. تتنهد.. كادت أن تقول له أن هذه الطفلة لا تعتاده كأب. تحتضن سنا وتقبلها، ثم تطلب منها الخروج كي تغير ملابسها.

تطيع الفتاة، تتجه للباب، تقف عنده لتلتفت وتسألها:

- هل حقا سيكون لنا أخ جديد؟

تبتسم أماني، وتميل برأسها يمنة ويسرة..

- ربما!

- ثم يتركنا وتأخذه تلك المرأة؟

يبدو الإحباط على وجهها، لكن تحاول التماسك، وتجيبها:

- اممممم.. لا.. يا صغيرتي الجميلة دعيني فقط أرتاح قليلا، ثم سنجلس معا، وأفهمك الأمر.

تأبى الفتاة إلا المواصلة، وتشير إلى أبيها باتهام..

- هو قال بالأمس.. أنت فقط تحملينه لكنه ليس لنا.

تمتلئ غيظا.. ماذا عساه قد قال لهم؟!.. بلهجة واثقة تخاطب صغيرتها:

- لا، هذا خطأ.. تعالي..

تدنو الصغيرة منها، فتميل على أذنها مغطية فمها بيدها، وتهمس إليها:

– هذه أمور لا يعرفها هو، لأنه رجل ليس لديه (بيبي) في بطنه. سأرتاح قليلا وأفهمك.. لأنك بنت مثلي.

تبتسم الطفلة لأول مرة منذ وصلا، وتنظر إليه كأنما هي مشفقة عليه من عدم الفهم. تخطف قبلة من خد أمها، وتجري خارجة إلى أخوتها.

يتنازعه طرفا مشاعره، بين الإحساس بالخطأ، وبين استعظامه لأن تنهاه أمام ابنته بهذه الصورة. لا يدري أيهما يجب أن يغلبه في هذه اللحظة. لكن نظرة إليها، وقد خلا وجهها من الدماء، كأنما هي في صدمة، يجعله ينسى كل ذلك، ويهرع نحوها.

تنظر إليه بعينين زائغتين. يكاد لا يفهم ما تقول، لكنه أبوها مرة أخرى.. يفتح حقيبتها، ويخرج ذلك المهدئ، ويأتيها بعلبة عصير، يجبرها على شربها كاملة، رغم إحساس الغثيان الذي غلبها. يساعدها على الاستلقاء بالفراش، ويرجوها ألا تفكر في أي شيء.

– أماني.. كوني على يقين أنك أهم عندي من أي شيء. لو قررتِ أن تتخلصي من تلك النطفة، فلن أمنعك.

تهز رأسها حائرة..

- إجهاض؟ أليس حرام؟.. أيهما الحرام يا وليد؟.. أرحني؟

يزفر حائرًا هو الآخر، لكن فكرة تقفز إلى رأسه..

- لو كان زرعه في بطنك حرام، فقد فعلناه وقضي الأمر.. دعينا لا نقتل روحًا يا أماني فنرتكب حرامًا آخر. أرجوكِ.. لا تهلكي نفسك بالتفكير.. نفسكِ عليكِ حرام أيضًا.

- لكنهم..

يقاطعها..

- سأتفاهم معهم.. ربما لم يكن حضوري جيدا معهم بالأمس.. أعدك أن سأقنعهم الآن..

تمر الدقائق، وتسترخي قسماتها بعض الشيء، فيعرف أن المهدئ قد بدأ فعله. يتنهد، ويلتفت إلى الباب مناديًا أولاده.

...

- هل يمكنني أن أصدق أنكم ترون أمكم متعبة هكذا، ولا تقومون حتى من مجلسكم أمام ذلك البرنامج السخيف؟

- ....

يتنهد، ويطلب منهم الإتيان بكراسٍ لهم ليتكلم معهم الآن أمامها.

هي تتابعه من وراء حجاب ذلك الدواء.. تستوعب ما يحدث، لكن لا تملك الهمة لأي رد فعل. تراهم وقد تراصوا متجاورين، وقد جلس أمامهم بجوارها.

- بالنسبة للموقف الحالي.. كلنا لا نملك الاعتراض على ما قضى الله بحدوثه بالفعل. مبررات ذلك ربما لا يمكنكم استيعابها، لكن هناك ما هو أهم.

يشير إلى أماني..

- من هذه؟

يمطون شفاههم تسخيفا لسؤاله، فيرتفع صوته – ربما لأول مرة أمامهم – حتى أنهم انتفضوا فزعًا..

- من هذه؟ .. أمكم.. وليس لكم أن تعاقبوها..

تجرأ عمر فخرج صوته الذي لم يستقر على الخشونة بعد..

- إذًا تعترف بأن الأمر خطأ، لكن ليس لنا أن نعاقبها!

يبادله التحدي، ويرد عليه ببرود:

- بل عليك أنت أن تعترف بما رأته عيناك من معاملة أمك لجدك، حتى مات راضٍ عنها. هل تستطيع أنت أن تكون مثلها في معاملة أبيها، كي يحق لك محاسبتها؟

يجفل الصبي، ولا يجد ردًا.. رغما عنها تبتسم أماني، وتمسك بكف وليد ممتنة. يكمل كلامه، وهو يرفع يدها، ليقبلها أمام أبنائه..

- هي أقدر مني على شرح الأمر، فقط دعوها ترتاح، فبها من التعب ما لا تتخيلونه.. أعترف أني بعيد كثيرًا عن عقولكم؛ ولهذا ربما لم أستطع أن أصل بالفكرة إليكم..

تغمض أماني عينيها، وتكاد تدمع وهي تراه يرمي على عاتقها شرح الأمر، وفقط يؤجله. تكاد ترد عليه، لكن تسبقها سنا فتقاطعه بلهجة الواثقة:

- أمي قالت لي أنك لا تفهمه لأنك رجل.

يبتسم لها.. ثم يكمل في ضجر مصطنع:

- كلامي انتهى.. عمر وبهاء بالذات يجب أن يفهماه جيدًا.. بعد فترة سأضطر للسفر، وستكون أمهما مسئوليتهما، ويجب أن يفهما تلك الأمانة الكبيرة.

يشير إليهم أن ينصرفوا، فيرتسم الامتعاض على وجه عمر، ويمد خطوه ليترك الحجرة، بينما يقترب بهاء من أمه، فيضع يده على جبينها للحظة، مفكرًا أن رأيه لن يصنع أي فرق، ولذا فالأهم عنده هو أن تكون أمه بخير. يربت عليها في تردد، ثم ينصرف في هدوء وتبقى سنا في مكانها.

يتبادلان النظرات للحظة، ثم تقوم من كرسيها، لتتسلق فخذه، وتجلس عليه ناظرة إليه وابتسامة منشرحة على وجهها. يتأملها قليلاً، ثم يضمها إلى صدره، والهدوء يتسلل إلى عقله المتعب أخيرًا.

...

سبعة عشرة يوما مروا.. ها هو في المعمل يسحب عينة الدم منها، ليأخذها إلى التحليل. كانت تشعر بأشد بؤس الملل،

لا تقوم من الفراش، لا تقترب من الهواتف الخلوية أو اللاسلكية أو الحاسوب.. لاءات كثيرة أملاها الطبيب وزادتها رجاء، التي تزورها يوميا، وبدأت تتودد إلى الأولاد، الذين — على ما يبدو — قد بدءوا يتقبلونها، وينعكس قبولهم لها على الارتضاء بالأمر كله.

تسأل رجاء الرجل في لهفة عن موعد تسلم النتيجة، فيرد مقتضبا أن هذا يرجع للطبيب. تغتاظ، ولكن تمنحه بعض المال، فيعدها بالاتصال بمجرد ظهورها.

- نبدأ بالتحليل العادي فلو كان إيجابيا سأبشرك، وإن كان فيه شك تخضع العينة لتحليل رقمي للتأكد وحساب بعض الأشياء التي لا أفتيكم فيها، فإنما يفهمها الطبيب.

شكرته، وانصرف حاملاً الأمل معه في ذلك الأنبوب الصغير. بقيت رجاء مع أماني قليلا من الوقت والقلق يخيم على رأسها تماما. أخيرا، احتضنتها، وبدت كأنما ستبكي انفعالا، وألقت السلام مفضلةً ألا تشيع التوتر حولها، فقد كانت تحرص على عدم تعريض أماني لأدنى خطر.

أوصلها عمر إلى الباب، ثم عاد إلى أمه. وقف صامتا لبعض الوقت، ثم سمح لنفسه أن يُقدِم، جلس إلى جوارها، يلوك ذلك المنديل الورقي في كفه، وعيناه تبحثان في الأرض عما لن تجدا.

كان عقلها يدور بألف مشهد لما سيكون. ترددت هل تبدأ

الحوار أم تتركه يبدأ بما يريده هو. أخيرًا، اعتدلت جالسة مظهرة انتباهها له، وظلت على صمتها في انتظاره.

هو أيضا كان يرقب رد فعلها. انتظر أن تبادره بتبرير، أو حتى بطلب عدم النقاش. حين طال صمتهما، ووجد انتباهها له كدعوة لأن يتحدث هو، احمر وجهه، وهم بالنهوض منصرفًا.

أمسكت ذراعه تمنعه.. تنهدت.. وبدأت هي الحديث:

- عمر.. تعرف أني لا أحب أن أتكلم بلسانك عما تريد. احكِ أنت، وأعدك بالإجابة عن كل ما تسأل.. ولن أرغمك على الاقتناع.

ابتسم بجانب فمه..

- الاقتناع ليس فيه إرغام.

رفعت كفيها مستاءة، وعلقت:

- لا أحتمل سفسطة يا عمر. إن كنت تعتقد أنك متأذٍ من الموقف، فأنا الأكثر تأذيًا. دعني أستطيع الاستمرار في الحديث إذا سمحت.

رفع حاجبيه، وهو يهز رأسه يمنة ويسرة متعجبًا..

- إن كنتِ متأذية إلى هذه الدرجة، فأنت تعرفين أن هذا خطأ!.. ليس فقط خطأ؛ بل حرام..

قاطعته:

- لا.. ليس بالأكيد حرامًا، وإنما هي آراء فقط. لم تصدر

فتوى رسمية بحرمته.

- لأنه غير وارد في البلد بعد.

- فليكن أي سبب؛ لكن ليس هناك فتوى بحرمته.

يزفر ضجرًا..

- لماذا وافقتِ؟

- لأجل أبيك.

إجابة قصيرة، لكنها حقيقية.. جعلت كليهما يدمع.. صمتا طويلا، قبل أن ينطق هو..

- هل يمكن أن يخطئ الإنسان، بل ويتأذى، لأجل أحد أيًا كان؟!

تنهدت.. ربتت على كفه.. وبصوت لا يكاد يُسمع ردت:

- ألا ترى بعينك أنه ممكن؟!

تركت دموعها تنساب لا تمنعها، تركت كلماتها هي الأخرى تنساب دون منعها.. تكلمت عن أبيها.. عن سكوتها عن زواج أبيهم من أخرى، عنهم جميعا، وعن كل حقٍ لها تركته من أجل كل هؤلاء. تكلمت بما لم تقله حتى لوليد.. فلم تكن معنية أمام وليد ببراءة تعنيها أمام ابنها.

انتهت.. سكتت.. انتبهت لكونه هو الآخر يبكي. جذبته لصدرها، وضمته. استسلم لضمتها، وهو الذي لم يعد يتقبل ذلك في السنتين الأخيرتين. تكلمت ثانية؛ لكن في هدوءٍ هذه

المرة..

- اعتبر الأمر كالرضاعة يا عمر. ما الفرق؟ الله لا يمنع إرضاع المرأة لطفل غيرها، ويجعله ابنها بالرضاعة.. تقدم العلم، فبكّر هذه العلاقة بين الجنين والأم الثانية.. أليست فكرة مريحة؟

بدت له غير مقتنعة بما تقول، ولكنه أحس بنفسها المتعبة كما لم يرها أبدًا.. قرر ألا يناقشها أكثر؛ لكنه لم يستطع إلا أن يسألها:

- وهل ستستطيعين تركه لها؟

رفعت إصبعها أمام وجهها..

- لقد اشترطت عليها أن سيبقى معي لإرضاعه.

كان وليد قد وصل عند هذا الجزء. سمعها قبل أن يلج الباب، فوقف مكانه. بقدر ما هو مشفق على رجاء، لكنه لا يثق أنها ستفي بأي وعدٍ، وإن أقسمت على بره. القادم صعب.. صعب بقدر صعوبة مراس كلتيهما. ألا ليته ما وافق أن تكون أماني.

- أتعرفين.. لا أستطيع أن أعدك بالكف عن الاعتراض.

ابتسمت..

- أعرف.. أعرف دون أن تقول.. لأني أعرفك يا بني.. ربما أكثر مما تعرف نفسك.

سكتت برهة، ثم أكملت:

- لن أفكر فيما بعد، من يدري، ربما أتى التحليل سلبيا وينتهي الكابوس. ولكن فقط ما يهمني أنك الآن لا تتخذ موقفًا عدائيا من أمك.

يبتسم.. "تلكن النساء!".. لهم كل الحق من يقولونها.

- عدني يا عمر!

- بمِ؟

- بأن تساعد أخوتك لقبول هذه الأيام.. فقط أن تقتنعوا أنها ظرف مؤقت، حتما سيمر.

...

يومان مرا، ورجاء معهم.. نعم، باتت معهم لم تستطع الذهاب، فبقيت لليوم التالي. لا تريد أن ترى أحدًا.. لا تريد الخروج.. ليس سوى ذلك التحليل الذي تنتظره.

جن الليل، وعمر يجالس زوجة أبيه محاولاً شغلها بالمنافسة بلعبة على الحاسوب المحمول الذي أهدته له. أحس وهو يرى قلقها أنه يعذر أبيه في موافقته على جموح حلمها. مدللة كثيرًا في نظره، لكن قلبها ليس سيئًا.

بهاء، وسنا كانا يلعبان كل بحاسوب صغير -هدايا رجاء أيضا- والهدوء يعم.

دق الهاتف الأرضي.. انتفض الجميع واقفين. كان بهاء الأسرع إليه، وبعد كلمات قصيرة، نادى أباه:

- المعمل.

أسرع إليه، وأسرعت رجاء أيضا، بينما انتفضت أماني في جلستها على الأريكة. سبق هو.. استمع قليلا، ابتسم لوهلة حتى أن أحدًا لم يتأكد أنه فعل، ثم جمدت ملامحه بلا تعبير. أنهى المكالمة، وأعاد السماعة مكانها في هدوء، وأخذ نفسًا عميقا، وهو يفكر كيف سيخبرهما معا، ومع من منهما يكون انفعاله. كانت رجاء أمامه، وقد رفعت حاجبيها، واحمر وجهها متلهفة للخبر بأعين دامعة. أماني في مكانها، وعيناها معلقتين به تائهتين لا تدريان أي نتيجة تتمنى.. عمر، وبهاء، وسنا قد تركوا ألعابهم حتى ظهرت على شاشات حواسيبهم نفس الجملة (game over)

قطع صوت أماني تفكيره:

- حرام عليك أن تراها بهذه الصورة، وتصمت هكذا.. ماذا هناك؟

ينظر إليها، كمن ينظر إلى تمثالٍ مقدس.. ينتقل بناظريه إلى رجاء الواقفة بجواره، فيأخذ يدها، وهي تكاد تكون فاقدة لإرادتها، وعلى وشك فقد وعيها أيضا. يجلسها بجوار أماني، ويحاول إيجاد كلمة أخرى غير "مبروك" فمبروك إحداهما هي ألم الأخرى..

أخيرًا، وقد أشرفت رجاء على الانهيار، وقد أحاطتها أماني

بذراعها، وهي تهدد وليد أنها ستقوم لطلب رقم المعمل من الدليل، وتتصل به بنفسها، أحل نفسه من التعبير عما يحسه، ونطق كلمة واحدة:

- إيجابي.

صرخت رجاء غير مصدقة، ورمت برأسها في صدر أماني تنوح في هيستريا، حتى لم تترك لها فرصة لتفكر في مشاعر نفسها. التقت عينا أماني بعيني عمر، الذي ابتسم لها في حنان، وهو يحس أنه يتمنى أن يبعد تلك المرأة الآن، ويعطي أمه حقها في إظهار مشاعرها هي الأخرى. تعجب للحظة من رجاء، ولجوئها لصدر أمه لا لصدر أبيه — زوجها - .. نظر إلى أبيه محاولاً أن يستشف ما وراء جمود ملامحه، فلم يستطع الغور أبعد من سطح جلده. كم يشعر بأنهما غريبان عن بعضهما؛ حتى وإن كانا ابنا وأبيه.

تحركت سنا من مكانها، وجذبت بنطال أبيها..

- لَمَ تبكي خالتي رجاء يا أبي؟ ألن تحصل على الـ (بيبي)؟

ربت على رأسها، وأجابها في هدوء:

- هي سعيدة لأنها ستحصل عليه إن شاء الله يا سنا.

ضحكت، وصاحت برجاء..

- أمي شاطرة يا خالتي.. بطنها تحب الأطفال.

التفتت إلى أبيها..

- المفروض تضحك يا أبي وتقول لخالتي رجاء مبروك.ألست زوجها؟!

سبقه إليها بهاء.. فاجأها بقبلة على جبينها، وبأول مباركة لها. ربتت أماني على ظهره، وفخرها بتصرفه جليًا في عينيها. أبعدت رجاء عنها، وابتسمت قائلة:

- مبروك يا رجاء.. هيا لتحتفلا بالمناسبة، وتدعاني أرتاح بفراشي بعد كل شد الأعصاب هذا.

ترفض رجاء، وهي تنهنه..

- لا لا لا.. سنحتفل مع الأولاد.. هيا يا أولاد البسوا بسرعة.. ليتك معنا يا أماني أيضا.

لم تمانع أماني في ذهاب الأولاد، وقد رأتهم يسارعون إلى حجرتهم لتغيير ملابسهم. قامت هي الأخرى مستندة إلى ذراع وليد، وقد تركا رجاء لا تكف عن شكر أماني، وحمد الله مرات ومرات.

...

حين استقرت في فراشها، أخذت تراقبه وهو يغير ملابسه هو الآخر.. خفضت صوتها كي لا تسمعها رجاء..

- اذهب للمبيت معها اليوم يا وليد.. أنا أحتاج أن أختلي بنفسي قليلا، وهي تحتاج أن تشعر بفرحتك لأجلها.

التفت إليها..

- أتظنين أني أتركك، وأنا أعلم تماما وقع الخبر عليك؟

- سآخذ المهدئ الآن وأحاول النوم، فأنا لا أبتغي التفكير على الإطلاق.

أتبعت قولها بالفعل، فمدت يدها إلى علبة الدواء، وأخذته، ووراءه بعض الماء.

- لا تنسَ أن تأخذ معك ما يكفي من نقود.

- يكفي لماذا؟

- لا تدعهم يرون زوجة أبيهم تدفع وهو معهم.

انقلب وجهه وهو يرد عليها..

- لك كلمات كاللكمات يا أماني.. رغم كونك على حق؛ إلا أن بإمكانك صياغتها أكثر لطفًا.

ضحكت، وأشارت له بيدها..

- آسفة.. اعتقدت أنك تعودت طريقتي السخيفة هذه.

لم يملك إلا الابتسام، وأن يأتي إليها، فيضمها في حنان، ثم ينظر في عينيها، يتمنى أن ترى في عينيه ما يجيش بصدره نحوها، تبعده برفق، وتقول:

- غبت كثيرًا عليهم.. هيا، ودعني لأرتاح من ضجيجكم جميعا.

...

- استفتِ يا أماني.

- فات الوقت يا أبي.

- أتحمنين حرامًا؟

- هل أجهضه؟ حتى ابن السفاح حرام إجهاضه يا أبي!

- فعلتها بنفسكِ يا أماني.. فعلتها بنفسك.

- هم سعداء يا أبي.. انظر إليهم.. انظر إلى رجاء.. مسكينة.

- أنتِ المسكينة.. هل يحس أحدهم بما فيكِ؟

- وليد.. عمر كذلك.. ورجاء تحمل لي العرفان أيضا.

- عرفان! عرفان للأمة!.. فعلتها بنفسك يا أماني.

- لست أمة.. تعرف أني لست أمة.. لا تقسُ يا أبي، فليس ذلك ما أستحق منك.

- تلد الأمة سيدها يا أماني.. الأمة.

- كفى!

...

سافر وليد.. أسوأ وداع أحسه كان هذه المرة.. سنون مرت وقد اعتاد الوداع، وأصبح حدثا روتينيًا في حياته. لكن هذه المرة كان يترك أماني ليست ككل مرة.. كانت دائما شامخة.. سند للبيت.. اليوم هي بدون أبيها.. بِحملٍ ثقيلٍ على نفسها قبل بطنها.. برجاء، التي يعلم جيدًا أن الشفقة عليها لن تبدد الاختناق بأوامرها وعجرفتها التي، وإن اختفت قليلا وراء

توددها، ستظهر عاجلاً جدًا.. وبتلك الكوابيس التي تزورها بين حينٍ وآخر، تحمل تأنيب أبيها، وتجعلها كالمدمنة التي تفتقد عقارها، وهي تبحث عن ذلك المهدئ.

كان قد مر شهر بعد نتيجة التحليل.. ثبت الأمر، و لم يعد فيه شك. أماني لا تحرص كثيرًا على أخذ العلاج المثبت للجنين، تقول في ثقة:

– أعرف جيدًا أن رحمي لن يلفظ طفلاً يحتاجه.

لا يناقشها وليد.. هو يشعر بثقة مماثلة فيها. لكنه بالتأكيد يخفي ذلك عن رجاء، فلو علمت، لملأت الدنيا احتجاجًا.

حاول أن يقنع رجاء أن تسافر معه. قال لها أن الفرصة الآن كي تكون هناك وترتب أعمالها، قبل أن يفترض أن تكبر بطنها، ويتوجب حينها غيابها عن الأعين؛ لكن رأسها العنيد لم يقتنع. وأخيرًا، وافقت أن تلحق به، بعد الاطمئنان على أول موجات صوتية (سونار) للجنين.

عمر بدا متعاونًا جدًا.. رغم ذلك كان في نظرته شيء لا يطمئن وليد. لم يعد هناك مجال للحوار، وكان عليه فقط أن يبدو واثقا فيه، وأن يوصيه بأمه. بهاء، وسنا بدوا سعيدين مستقرين لا يحتاجان أكثر من خدمتهما، وكانت أماني قد اتفقت مع فتاة، تحضر إليها، يوما بعد يوم، للطهي وترتيب البيت. لا زال في إجازة الصيف شهرين، وهذا يعطيها فرصة

أفضل أيضًا، فلا ينقصها هم الدراسة، ومتابعاتها.

وأخيرًا سافر.. وأخيرًا لحقته رجاء. جاءت تحمل صورة الموجات الصوتية في يدها كأنما هي وليديها.. قد تشبث برحم أماني توأمان معا، فتضاعفت فرحة رجاء. حين عادت لوطنها، أشاعت الدنيا بأخبار حملها، وأرت صديقاتها تلك الصورة التي لم تفهمن منها شيئا، ولكنها لم تخبرهن بكونه توأما خشية الحسد. لم تكتفِ بصاحباتها، بل لقد ذهبت إلى المستوصف، ففتحت ملف متابعة للحمل، أرفقت فيه صورة تحليل الحمل الإيجابي، وصورة الموجات الصوتية.

بدأت تعد أوراق العمل، وتوكيلات عامة لوليد ليدير كل شيء، فالمفترض أن ترتاح بالفراش، لتحافظ على حملها الثمين. بدأت أيضا تعد حجرة للنجم الذي يقترب مجيئه. كانت سعادتها هوسًا، وكان سعيدًا بها رغم ذلك.

حين سمعت بسخرية حماتها السابقة منها، وقد عرفت بالخبر، وقولها أنها في انتظار إجهاضها ككل مرة، كالمجنونة اتصلت بأماني، لتطمئن أن كل شيء على ما يرام. كانت تكلمها كأنما عاشق يشتاق لمعشوقته الغائبة عنه، وتتمنى الليل عند النهار، والإصباح عند الليل كي تذهب إليها.

رغم تباطئه ألا أن الميزة في الزمن كونه لا يقف. يمر شهر وراء آخر، ورجاء تحرص أن يزيد وزنها قليلا، كي تبرز بطنها،

ويقتنع من حولها بحملها، حتى كاد وليد نفسه يقتنع.

...

بدأت الدراسة.. بدأ عمر يخرج أكثر بعيدًا عن جو البيت، وتأثره بصورة أمه أمامه. عاد للتفكير في مدى صحة أو حرمة ما يحدث.. ربما ليس فقط الحلال والحرام ما كان يقلقه، ولكن ما قد يقول لأصحابه إن عرفوا بحمل أمه، أو رأوا الطفل القادم، ثم يختفي ذلك الطفل دون عزاء، وحينها ماذا عساه يخبرهم من تبرير؟!

ألهته الدراسة بعض الشيء في شهرها الأول، لكنه مر، وبدأ عقله يثور مجددًا.. أو ربما إحساسه باستقرار أمه صحيًا في الآونة الأخيرة هو ما أيقظ هذه الثورة. في حصة للسيرة، أخذ المدرس يحكي عن السيدة حليمة السعدية.. كيف تعلقت بالنبي بعد أيام رضاعته، وطلبت من أمه أن يبقى معها. شرد يفكر أن أم النبي تركته لغيرها. بالفعل الحالة شبيهة بشكل ما بما تفعله أمه. أخذ يسترجع كلماتها: " لقد اشترطت عليها أن سيبقى معي لإرضاعه".. هل سيحل ذلك المشكلة، أم سيعقّدها أكثر؟.. هو متأكد أن هذه المرأة ليست من تستطيع أن تبعد طفلها عن حضنها، لتعطه لأخرى.

انتبه على صوت المدرس يؤنبه على شروده، ويذكره بأنها ليست المرة الأولى. اعتذر، وحاول الانتباه، وهو ينتظر

الساعات الباقية لينتهي حبسه هنا، فقد قرر أنه لن يدع الأمر مائعًا أكثر من ذلك.

عاد إلى البيت أخيرًا. التقم الطعام ،كي لا يلح عليه أحد بالقيام إلى الغداء، ثم هرع إلى حاسوبه يبحث عن ذلك الأمر. حاول التعبير عنه بأكثر من طريقة.. لم يكن على خبرة كافية ليعرف أن مسماه المهين هو تأجير الأرحام. لم يعثر على ما يبتغي.. يأس مرات، وجدد محاولته مرات.. قاطع محاولاته دخول صديق له غرفة المحادثة على الـــ (إنترنت)، فما كان منه إلا أن اعتذر بانشغاله. سأله صاحبه عما يفعل، فأجابه بأنه يبحث عن فتوى دينية ولا يجدها. رد ببساطة ينصحه بإرسال سؤاله لموقع دار الفتوى، وأتبع ذلك بإرسال رابط الموقع. قفز في مكانه رافعا يده على طريقة الأمريكان. دخل على الموقع.. كتب سؤاله، وسجل الرقم الذي ظهر له... وأغلق حاسوبه.. وزفر في راحة أن قد فعلها أخيرًا.

ليس إلا دقائق، ثم هاجمه احتمال أن يردوا بحرمتها.. ماذا سيفعل حينئذ؟ هو كذلك لم يسأل عن ما يكون إن حدث الحمل فعلا.. هل سيمكنه أن يواجهها – أو بالأصح يهاجمها – بالفتوى في يده؟!

أغلق حاسوبه في غضب.. دفعه إلى جانب الفراش متذكرًا أنه هدية ممن أغوتهم جميعًا.. أراد أن يصرخ.. وضع الوسادة فوق رأسه، وبكى.

ودودة حتى التخويف.. هكذا كان يفكر في رجاء.. ليس مطمئنا لكل هذا الود الرطب كقلب وردة.. يحاول إقناع نفسه بأمومتها المنتظرة، بتقديرها لمنحه الفرصة لها لتحقيق أمومتها، باقتناعها انه سيكون أبا طفلها القادم.. لكنه لا يستطيع الاطمئنان أبدًا.

يلقي برأسه للوراء فيميل به الكرسي الفخم الماثل وراء مكتب رجاء، والذي يحتله هو الآن، كي تحصل على راحة لازمة للحمل بعد علاج، كما تشيع عن نفسها. اقتربت من بدء شهرها الخامس، شهر أماني الخامس... يزفر في ضيق.. أيا كان ما يجب قوله، فقد أزف وقت سفرها إلى مصر. صحيح أن زيادة وزنها تجعل مظهرها مقنعًا، لكن لن يدوم هذا كثيرًا. مع انتصاف شهرها الخامس ستكون هناك.. و(هناك) لا تعني ذلك الفندق، أو غيره. بل تعني في بيته.. في ضيافة أماني.

لقد اتفقتا على ذلك في مكالماتهما الطويلة اليومية. أماني لا تكاد تتكلم معه في المقابل أكثر من دقائق قليلة كلها تتحدث فيها عن أخبار الأبناء، وتسارع بتغيير اتجاه الحديث إن سألها عن حالها هي.

يشعر أن الأمر لا يمكن أن يستمر هكذا.. أماني تتغير بسرعة إعصارية.. يجب أن يجد حجة ليسافر إليها هو الآخر.

يدق هاتف المكتب المباشر، فيعتدل في جلسته ليصل إليه،

ويرفع السماعة إلى أذنه..

- نعم!

- أقول .. سأحجز للسفر الآن.. أترى الأمر مقنعا أن تتركني أسافر وحدي، وأنا المتعبة المهددة في حملي؟

لا يصدق أذنيه.. ها هي رجاء تحقق أمنيته بدون أن يطلبها.. يرتكز إلى المكتب بكوعه، ويحاول ألا تبدو سعادته في نبرات صوته وهو يجيبها:

- أعتقد سيكون ذلك مثيرًا للشك.

تضحك في تخابث لطيف..

- صوتك يرقص فرحا يا وليد.. أنت تريد السفر أيضا بصرف النظر عن مسألة الشك هذه

أنهت الاتصال دون أن تنتظر رده. هز رأسه والابتسامة تملأ وجهه. تنهد مرتاحًا حتى علا صوته، وفتح ذراعيه عن آخرهما، وهو ينهض، ويتجه للباب.

يدق هاتفه، فينظر إلى شاشته، ليجد رقم عمر. يرد سريعا وقد خفق قلبه..

- كيف حالك يا عمر؟

- أحمد الله يا أبي.

يشعر بتغير صوته، فينهشه القلق..

- ماذا حدث يا عمر؟ أنت بخير؟ أمك بخير؟.. هل حدث

شيء؟

- اطمئن يا أبي، ليس هناك شيء يقلقك.. لكن..

انتظره ليكمل.. أحس أنه لا يحتاج المقاطعة بقدر ما يحتاج فرصة لجمع شتات نفسه. حين طال صمته قال له:

- أغلق يا عمر، وسأتصل أنا بك فيبدو أن المكالمة ستطول.

....

جلس في كرسي وثير محاولا الاسترخاء، ودق رقم ابنه، الذي لم يتأخر في الرد..

- ها.. ما الأمر يا أخي؟

- أخوك!

- كبرت يا عمر.. أنهيت سبع التدليل، وسبع التربية، وبدأت منذ عام سن تكون فيه أخي وعوني.

صمت عمر لبضع ثوان، ثم استجمع قدرته على المواجهة ليقول:

- استفتيت يا أبي.

وقف ريقه في حلقه وهو يبتلعه. أخذ بعض الوقت ليمكنه الرد على تلك المفاجأة الجديدة..

- استفتيت فيم يا عمر؟

- في حمل أمي.

- استفتيت من؟

- دار الإفتاء، وغيرهم.

- مع من ذهبت لدار الإفتاء؟

- لا حاجة للذهاب.. هناك موقعهم على النت.

- اممممم.. ثم؟

- قالوا أن الأغلب يجمعون على حرمته..

قاطعه وقد تصيد الكلمة..

- الأغلب تعني أن احتمال حلاله قائمة.

- قالوا أن نجتنب الشبهات.

- لم نتجنبها وكان ما كان يا عمر.. وفي اختلاف العلماء رحمة.

- أنا متعب يا أبي!

قالها بصوت مخنوقٍ اعتصر قلب وليد. هذه المرة لن يمكنه إلقاء الحمل على كتفٍ أماني - كما فعل من قبل — فالولد يريده هو، ويتصل به. لم يجد ما يقوله له سوى أن أخبره أنه آتٍ إليه قريبا..

- سأكون معك قدر إمكاني يا عمر.. سآتي إليك في غضون أسبوعين أو أكثر قليلاً، وربما آتي بك إلى هنا في إجازة نصف العام أيضا. يجب أن نكون أقرب كثيرًا يا بني، فكلانا يحتاج لذلك.

- ستأتي إذاً مع خالتي رجاء؟

حاول أن يقحم ابتسامة وسط تلك المكالمة الشائكة.. بلهجة مسرحية قال:

- يا للنساء!.. ليس لديهن سر!

هيئ له أنه سمع ضحكة خافتة من عمر، فابتسم، وتنهد..

- اطمئن يا حبيبي.. اطمئن واعلم أن أباك في ظهرك فاستند إليه، وأزح عن كتفيك.

أنهى المكالمة، غطى وجهه بكفيه، عقله يدور في دوامة الحيرة، حتى كاد يفقد وعيه. خارج حدود الوعي والإرادة يتصرف العقل بما يحمي ذلك الكيان الذي يحكمه.. وجد نفسه يمد يده إلى حقيبته، ليخرج علبة - لم يكن يتذكرها - مماثلة لتلك التي تستخدمها أماني، فيأخذ منها قرصا، وليبتلعه دون انتظار للماء. لقد سأل الطبيب عنه حينذاك، ليطمئن إلى كونه آمنًا لزوجته، وإذ اطمأن إليه، جعل منه علبة للاحتياط في حقيبته.

...

قرابة الثلاثة أسابيع قضاهما وليد ورجاء في التجول بين المتاجر، لتشتري رجاء ما تعتقد أنها ستحتاجه، وما تريد من هدايا لأصحابها — كما تسميهم - .. أهي قد أحبتهم حقا؟!.. حين يسألها عن ذلك ترفع حاجبيها دهشة، وتقول:

"أليسوا أخوة ابنائي؟!" .. تسترسل في الحديث عن جنسهما.. تتحسر أن لم تعرفه لتشتري ملابسهما قبل السفر. تعود فتتكلم عن أنه ربما هكذا أفضل كي تختارها وأماني معها.. ثرثرة، ثرثرة، ثرثرة.. لا تنقطع.

أما عن أماني.. هي تصر أن تشتري هداياها دون أن يكون وليد معها. لا تريد منه أي اعتراض، أو كلام عما تفضله أماني. عند نزولها إلى الأسواق، ترتدي نقاباً، لا تريد أن يراها أحد، فينقل أخبارها لأي من أهل السوء. حتى سفرها لم تذكر عنه شيئا لصديقاتها، اللاتي قللت كثيرًا من جلساتها معهن، واقتصر اللقاء على زيارات متفرقة هادئة منهن لها تتباعد كلما مر الوقت، فليست الزيارات المترلية الخالية من الإثارة هي ما يجذبهن بحال.

لا يمر يوم إلا ويكلم عمر. تقلقه جدا نبرة صوته؛ رغم أنه دائما يحاول طمأنته، ويعده بتأجيل التفكير في أي شيء لحين لقائهما. أماني تطمئنه أيضا. تقول أنه بخير، ومنتبه لدراسته ربما أكثر من سنواته السابقة. يعتني أيضا بسنا، ويساعد بهاء في دراسته. هو فقط يتجنب الحديث معها وحدهم، ولكن هذا لا يقلقها كثيرًا، فهي تتفهم أسبابه.

- إنه يتكلم عنك كثيرًا، وينتظرك جدًا. جميل أن يتعلق بك في سنه هذا يا وليد.

يوافقها مبديا سعادته.. يحاول أن يقول بضع كلمات عن أن ربما ما ظنوه شرًا جعل الله فيه الخير، وقربه من أبنائه. يريد فقط ألا يحملها فوق ما تحمل، لكن ربما اقتناعه الحقيقي هو أنه أقرب تماما للكذب في كل ما يقول.

...

حين انتهيا من إعداد حقائبهما، أو بالأصح حقائب رجاء، التي استعار منها وليد بعض الفراغ لحاجياته القليلة، كانت رجاء قد اقتنعت تماما بأن سيارات تاكسي المطار الـــ (فان) هي ما يمكنها أن تستوعب حمولاتهما.

حرصت على الذهاب إلى طبيبة المستوصف قبل أن تسافر. اختارت أكثر الأوقات ازدحامًا، ودخلت إليها مصطحبة صور من آخر تحاليل أماني، وآخر صورة موجات فوق صوتية كذلك، وقد أرسلتهم لها عبر البريد الإلكتروني. أخبرتها أنها لن تعطلها، ففقط تريد شهادة بقدرتها على السفر كاحتياط للمطار، وطلبت منها الاطمئنان على ضغط الدم. أرتها أوراق التحاليل، وقد غيرت فيها اسم المعمل، وكذلك صورة السونار، مستخدمة برامج الحاسوب. نظرت الطبيبة في الأوراق في عجلة، وتلقائيا أرفقتهم بملف المتابعة، واطمأنت على ضغط رجاء.. نظرت للسانها، وشفتيها سريعا، وضغطت ساقها بإصبعها، لترى إن كان هناك تورما. وإذ وجدت تلك الأشياء

طبيعية، كتبت لها تصريح السفر، والابتسامة المنتصرة ترتسم على شفاه رجاء.

وبينما انشغلت هي بتلك الأمور، كان وليد غارقًا في تجهيز أوراق العمل، بعد أن أنبأته رجاء بنيتها توزيع نشاطها بين البلدين لكي يمكن لأماني أن تبقى مع الطفل وقتًا أطول.. إن هذا يعني أيضا أن رجاء قد تصحبه في كل إجازة، وليس ذلك بالشيء المحبب له، لكن ربما يضطر إليه بالفعل.

ما شغله أيضا، وأقلقه؛ هو بحثه الدءوب على الإنترنت عن فتاوى تأجير الأرحام. لم يكن عسيرًا أن يجد التحريم في صفحات وصفحات؛ ولكنه كان يبحث عما يبيحه. كان لابد من أن يجد ما يستند إليه لطمأنة عمر. وكان لابد أن يكون صاحب الفتوى ذو مركز يكفي لإقناع ذلك المراهق العنيد.

ربما لم يكن عمر عنيدًا.. وربما وليد يبحث عنها لنفسه، ولأماني أيضا.. كلهم - باستثناء رجاء - في حاجة إلى تلك الفتوى.

...

ترحيب، واشتياق، وجلسة عائلية طويلة. حقائب تفتح، وهدايا كثيرة، وصيحات الفرحة والمفاجأة. ثم سكون طال، وقد نادى النوم على عيون الصغيرين. تصفق أماني بكفيها منادية لهما بالدخول إلى غرفتهما، وتأخذ رجاء إلى غرفة أبيها

التي خصصتها لها الفترة القادمة. تجر رجاء إحدى الحقائب وراءها، وهي تقول..

– هنا مفاجآتك أنت حبيبتي. سأريها لك بالحجرة بعيدًا عن أعين الأطفال، والرجال.

تتضاحكان، وتدخلان معا، حيث يطول مكثهما، ويصل صوت حديثهما إلى الصالة همهمات غير مفهومة.

تلتقي أعين وليد وعمر وقد خلت الصالة ممن عداهما، فيبتسم وليد، ويتنهد سائلاً:

– أتود الحديث الآن؟

– ممكن؟

يهز رأسه، ويقلب شفته متشككًا. كان يشعر بالرغبة ببعض الراحة، وبالاختلاء بأماني ليعرف منها أكثر عن حالها، وحال عمر وأخوته، قبل أن يفتح الحوار. ينحني للأمام مقتربا برأسه من ولده، وقد خفض صوتا، كأنما لا يريد أن يسمعهما أحد..

– هل تعتقد أن الحوار الآن أفضل، أم ننتظر للغد وننزل معا للحديث وحدنا؟

بدا على وجهه بعض الإحباط، لكنه هز رأسه موافقا..

– معك حق.. لا داعي أن يكون الكلام مقاطعا.

زفر، وأكمل:

- وبصراحة لا أريد تدخل أمي ولا خالتي رجاء في الكلام.

- ولا أنا أيضا.. هذا حديث يخصنا دون ثالث.

...

صحوا جميعا متأخرين بعد سهرة الليلة السابقة. كانت الجمعة، فسارع وليد وابنيه ليلحقوا الخطبة والصلاة، ثم عاد بهاء وحده إلى البيت، بينما ذهب الآخران ليتمشيا.

وصلا إلى موقف القوارب، برقت عينا وليد وهو يلتفت مبتسما إلى عمر، ويسأله قاطعا صمتهما الذي طال:

- تركب؟

- ماذا؟

- مركب شراعي.

ابتسم عمر، فاتسعت ابتسامة وليد، واتجها للسلم نازلين إلى أحد القوارب ذي شراع ملون مبهج. بعد فصال قصير، ناول وليد للمراكبي مبلغا، وصعد ووراءه عمر إلى ظهر القارب. جلسا في مؤخرته متقابلين، وعلق عمر..

- يبدو أنك تعرف الأسعار وتجيد الفصال.. أركبته كثيرًا؟

ابتسم وليد وهو يمد بصره بعيدًا، وأخذ يحكي من ذكرياته مع أماني ما لم يحكِ لأحدٍ من قبل. نظر إلى رفيقه، الذي خط شاربه، وتلونت لحيته بشعرات كستنائية، وتنهد سعيدا برفيق النهر الجديد. لا زال يذكر آخر مرة أتى للنهر يطلب الإيناس،

فسقاه وحدة مريرة ضيعت معها حتى الإحساس بالوطن.

يقاطع عمر أفكاره بسؤاله:

- لَمَ تنظر إليّ هكذا؟

- سعيد برفقتك.

يسكت لحظة، ثم يرفع عينيه إلى والده، ليسأله:

- رغم أنك تعرف ما أريد التحدث فيه؟!

- قل ما شئت، وسأسمعك.. يوما ما ستفهم سعادتي بك في رحلة النهر هذه يا عمر.. يوم ليس ببعيد، فقد بدأت تخطو للرجولة يا ولد.

يلكزه ضاحكا، فيكاد ينقلب على ظهره، فيتبادلان الفكاهة لدقائق، يصمتان بعدها، وتظهر الجدية على وجه عمر، فتضفي عليه سنا أكبر.. ويبدأ هجومه.

- أبي.. أنت تعرف أن حمل أمي هذا حرام.. فما الحل؟

كان قد استعد للنقاش جيدًا، فتنهد، ثم رد بصوتٍ هادئ، ووجه مبتسم، متجاهلا نبرة الهجوم التي يتحدث بها ابنه..

- لماذا هو حرام؟

- أغلب الفتاوى تجمع على حرمته.

- أغلب غير تجمع يا عمر.. وحين تختلف الفتاوى استفت قلبك.

- أنا غير مرتاح يا أبي.

- لا يا عمر ليس أنت.. أتكلم عن صاحبة الأمر.. أمك.

- أمي استفتت حبها لك لا قلبها، وأنت تعرف هذا يا أبي.

- ربما يكون ذلك فعلا.. لكن أتكلم من واقع اللحظة الحالية، لا ما كان من شهور.

يأخذ نفسا عميقا، ويحاول تغيير اتجاهه، كي يتجنب الشمس ولا يلبس نظارة الشمس، فيظن ابنه أنه يخفي عينيه منه..

- أنا بحثت أيضا يا عمر.. لن أكذب عليك، وأقول أني بحثت قبل أن نبدأ ذلك الطريق، ولكن الحقيقة أني بحثت بعد مكالمتنا التي أخبرتني فيها ببحثك.

- وهل وجدت شيئا إلا ما أخبرتك به؟

ينظر إليه، ويعقد ساعديه على صدره في ثقة سائلا:

- هل تعرف من الذي اعتبره جائزًا؟

يهز رأسه نافيا، فيكمل وليد:

- إنه عضو بمجمع البحوث الإسلامية.. معه دكتوراه من كلية أصول الدين، وكان عميدها.

يرفع حاجبيه ويسأله ثانية:

- هل عني ذلك لك شيئًا؟

بجدية يجيب..

- فهمت ما تعنيه.. تظن أن هذا كفيل بالثقة بفتواه، أليس

كذلك؟

- لا، ليس وحده. إنه المنطق يا بني.. لا يمكن أن نحتكم لتفكير السابقين الذين ليسوا في حاضرنا، ولم يعرض عليهم ما نحكّم آراءهم فيه، أليس كذلك؟.. الرجل أخذ بالقياس يا عمر بطريقة علمية جميلة. هل قرأت فتواه؟

يهز رأيه نافيا، ويحمر وجهه وقد بدا أنه يأبى الاستسلام لمنطق أبيه. يرى وليد ذلك، فيرأف بمراهقة الفتى، ويتنهد، ثم يسأله في رفق:

- قل لي يا عمر.. هل أنت تريد الفتوى لتقتنع، أم تريد فتوى لإثبات قناعتك المسبقة؟

يرتبك عمر.. لم يكن يتوقع أن يقرأه أبوه بهذا الوضوح. يفتح فمه يهم بالاعتراض، لكنه يتراجع.. إن هذا ليس من الحكمة بحال.

- أنا بالفعل كما تقول يا أبي. أنا غير مرتاح لما يحدث.

تتسع ابتسامته الحانية.. يقترب إلى جوار عمر فيطوّق كتفه بذراعه، وينطلق ضاحكًا. ينظر عمر إليه غير فاهم، فيخبط ظهره في ود، ويقول:

- كبرت يا عمر.. بالفعل كبرت، وأصبحت رجلا.

يقربه من صدره عنوة وهو يطلق آهة عالية لفتت نظر المراكبي، وأكمل:

- أنت تحدد ما أنت عليه بهذه الجرأة مع نفسك يا عمر.. هذا رائع يا بني. ربما أنا نفسي أفتقد هذه القدرة في أحيانٍ كثيرة.

يبتسم عمر مزهوا. يعترف لنفسه أن أباه استطاع التأثير فيه. لكنه يشعر بصدقه، ولا يعتقد أنها حيلة أبوية للإقناع. يتفكر قليلا قبل أن يسأل:

- وما تفاصيل الفتوى يا أبي؟ كيف يرد على حجج من حرموه؟

يخفي وليد، قدر إمكانه، وقع السؤال عليه. عيناه تحاول أن ترى ما إذا كان عمر سيترك تحصنه داخل الفتاوى المؤيدة لرأيه، ويفتح بابه للاقتناع؟.. تمنى ذلك في نفسه، وهو يشرح له وجهة نظر ذلك العالم..

- إنه يعتبرها كما الرضاعة يا بني. يعتبر صاحبة الرحم أما بديلة كما المرضعة، وصاحبة البويضة أمًا أصلية، ويقول لمن يقولون بأن الرحم له قدره عند الله، وأنه قد يورث وليس الجينات فقط، إن الرضاعة كذلك لها قدرها إلى درجة أن حرم الله بها النسب، وجعل المرضعة أمًا محرمة، وأبناءها أخوة محرمون على الرضيع.

التفت إليه يسأله:

- " لا تسترضعوا الحمقاء فإنها تورث" هل سمعت هذا من

قبل؟

- لا..

- يقال أنه حديث، ويقال أنه قول لعلي بن أبي طالب.. أنا غير متأكد في الحقيقة.. لكنه على أي حال يرد على من يدعي أن الرحم يورث.

يكمل:

- هناك أستاذ في الصحة الإنجابية وافق على الفتوى، وقال إن الرحم لا يورث وإنما تورث البويضة والحيوان المنوي فقط..

ابتسم وهو يتذكر شيئا..

- أتعرف أن أمك فكرت بنفس الطريقة قبل أن توافق؟.. إن عقلها جميل.

- أعرف.. قالت لي ذلك.

هدأت نبرة صوته، وهو ينهي كلامه..

- هذا كل ما عندي يا عمر. فكر فيه، واجعل اقتناعك يتلو تفكيرك، لا أن تسخِّر تفكيرك لإثبات قناعتك. هل تعدني؟

يطرق عمر برأسه..

- سأحاول يا أبي.. أعدك.

يستطرد..

- ولكن يا أبي أحدهم قال أن الجنين في رحم غير أمه باب من الزنا.. لا أذكر كيف.

يضحك ضحكة صغيرة، ويرد عليه..

- حتى إن كان ذلك صحيحا، ففي حالتنا هذه، الخلية مني في رحم زوجتي، أليس كذلك؟

يهز رأسه مقتنعا، فيربت وليد على كفه، ويسأل المراكبي أن يعود بهما إلى المرسى، ثم يسترخي متأملا الماء وشمس العصر المحمرة.

...

مر الأسبوعان، لكن مد وليد بقائه، فإجراءات مشروع رجاء لم تنته، والعمل هناك يسير بدون مشاكل كبيرة تحتاج وجوده. لقد كان يريد ذلك، فلم يكن مطمئنا إلى بقاء أماني ورجاء معا. الصغار أيضا كانوا فرحين به، فأماني رغم تخففها من حمل أبيها، إلا أن حملها، ورجاء شغلاها كثيرا، حتى لم يعد لها حديث سوى ذلك القادم أو القادمان، ولا جليس سوى رجاء. كان عمر يقنع بهاء أن أمهما قلقة، وحزينة، ولذا هي تقتل الوقت بانشغالها مع رجاء؛ كي تنسى أفكارها تلك، وتمر بذلك الحمل، لتعود إليهم. وكان بهاء يجده أفضل تفسير يمكنه أن يريحه، فقبله مستسلما.

سنا لم تكن لتفهم ذلك. عمر كذلك لم يكن قد بلغ من النضج ما يمكنه من احتواء عقلها الصغير الناصع الصراحة،غير القادر على الالتفاف على الحقيقة، وتقبل الحجج. ربما لذلك

كانت أكثرهم سعادة بتأجيل سفر أبيها.

لم تبق رجاء حبيسة البيت، وإنما لجأت للنقاب لتستطيع الخروج. كانت أماني تشجعها على عدم تقييد نفسها بالبقاء إلى جوارها. طفلها بدأت حركته تُحس بوضوح.. لم تخبر أحدًا، بل ازداد تفضيلها للاختلاء بنفسها.. طفلها، أم طفل رجاء.. تقول لنفسها أنه طفلهما معا، وتكرر ذات الحجج..

...

- كبرت بطنك يا أماني.

- يقولون أنه توأم يا أبي.

- ستقتسموهما؟

- ما هذا الكلام؟

- ليسوا توأم يا أماني. هل تشعرين بغير واحد؟

- ....؟

- مات واحد.

بجزع تصرخ..

- ابني!

بجمود يرد..

- ليس ابنك .. لست إلا الأمة التي ستلده!

تصرخ به..

- بل ابني.. اذهب.. اذهب لا أريد أن أسمعك ثانية.

يبتسم، والدهشة ترتسم على وجهه المجعد..

- هل ذلك ممكنا؟.. صوتي جزء منك يا أماني، فستسمعيه، وإن لم أطلقه.

تبكي، وتمسك بطنها، وتكرر كثيرًا..

- اذهب.. اذهب

...

تستيقظ فزعة باكية، ويد وليد تهزها. تسأله عما حدث، فيمسح دمعها الغزير بيده، ويسألها..

- أنا من أسألك.. ماذا حدث؟ كنت تشهقين بالبكاء!

تسترجع المشهد مطرقة، وتمسح دموعها بكفيها.. ترفع رأسها لتسأله:

- هل كان أبي يحبني حقا؟

يستغرب السؤال، ولا يرد. لكنه عرف أنه كابوس جديد. كأنما تقرأ أفكاره، فترد عليه

- هذا ليس كابوس يا وليد.. أريد النزول للسونار.

- ماذا؟! لا زال الصبح لم يطلع!

تلتفت للنافذة، فترى ضوء الشمس خافتا لم يشرق بعد، فتزفر قلقةً..

- أهو ميعاده يا أماني؟ ألم يقل الطبيب أن السونار القادم بعد شهر تقريبا؟

تنظر إليه بعينٍ باكية، ولا ترد، فيضمها إلى صدره..

- أماني.. كلُّ هذا الكبت ليس قوة؛ بل سيجعلك تنهارين. تكلمي أكثر، ولا تكتمي مشاعرك. أرجوكِ..

تأخذ في البكاء على صدره، وهي تقول..

- وما الذي يمكنني تغييره؟ ماذا إن قلت لك أني لا أطيق أن أراها أمامي؟ هي سيتغير شيء؟

يتفاجأ بكلامها، فلم يتوقع أن يصل الأمر لذلك..

- فلماذا اتفقتِ معها على بقائها عندك؟

- اتفقت! قالت هي أنه الوضع الوحيد المناسب، فماذا أقول لها؟

يرفع وجهها إليه، يشعر بحنين شديد إليها، إلى الصفاء الذي افتقدته عينيها منذ فترة. ضعفها يشده إليها أكثر، ويسلمها إليه أكثر، فيقترب منها، وتلتقي شفاههما في تفاهم لم يستطع الكلام أن يصل إليه.

تهدأ أماني، وتسند رأسها إلى صدره مغمضة عينيها. يعبث هو بخصلات شعرها للحظات، قبل أن يتذكر طلبها، فيسألها..

- لماذا السونار يا أماني؟

يخرجها من سكينتها، فتنتبه، وتفتح عينيها، لكن لا ترفع رأسها عن صدره. تحاول أن تجيب بهدوء، لكن صوتها يختنق بالبكاء..

- قال إنه مات.. أحدهما مات يا وليد.

- ششششش... من الذي قال يا أماني؟

- أبي.

- إنه كابوس.. لا تعترضي.. رغم ذلك بمجرد أن يطلع الصبح سنذهب للسونار لتطمئني.

يستطرد..

- ربما لو كان حدث، فهو راحة أيضا لكِ.. سيزيح هم كل تلك الحكاية.

تترع نفسها من حضنه غاضبة.. تهم بالصراخ في وجهه، فيسبقها بقوله..

- كله خير يا أماني.. لن نسبق الأحداث، لكنك هكذا تثبتين أنك لم تعدي نفسك إطلاقا أنك فقط أمه البديلة، فكيف بعد ذلك.....

تقاطعه..

- بديلة أو أي المسميات.. أنا أمه.. ما الذي فعلته هي لتكون أمه؟ أنا من حملت، وتعبت، وأحسست حركته دون أي إنسان غيري. أنا من أحببته قبل ....

تصمت فجأة.. أفزعتها كلماتها، فنظرت إلى وليد غير مصدقة.. بصوتٍ لا يكاد يخرج قالت:

- إنه حرام!.. إنه حرام يا وليد!

حاول أن يكون هادئا، هي تنهار بالفعل بين خصومات أفكارها..

- لماذا يا أماني؟ لقد وجدت من الفتوى ما طمأنني أنه ليس حراما فلا تزيدي من الضغط على نفسك بغير داعٍ.

- فتوى! من أفتى لم يحمل.. لم يشعر بما أشعر به الآن.

وضعت يديها على بطنها، وسألته:

- هل يمكن أن يكون هذا ليس ابني؟!

- هو ابنك يا أماني طبعا.. ابنك كما في الرضاعة.

تدمع عيناها..

- ألن ينسب لي؟!.. إنه قطعة مني يا وليد.. خلية واحدة منها، وتعب يوم.. أيام؟.. كم خلية أصبح مني أنا، وكم تعبت له؟

تقوم إلى الدرج بجوار الفراش، فتخرج صورة السونار ثلاثي الأبعاد حين أتمت عشرين أسبوعا من حملها.. تشهرها أمامه، وتقول:

- انظر.. لكل منهما عينان وأنف، وفم.. هذا الكف الصغير.. إنسان وليس مجرد خلية.

يحار كيف يجيبها. لابد أن تأخذ دواءها المهدئ الآن، ولكن في حالتها هذه لن يستطيع أن يعرض ذلك عليها. يقوم إليها، فيحتضنها، متوقعا أن تقاومه؛ لكنها تستسلم له تماما كطفلة

تخلت عن عنادها.

ترفع الصورة أمام عينيها ثانية، وتبكي..

- ابني هذا حرام يا وليد؟ سيموت؟

- لا تقولي ذلك يا أماني. لا ذنب له في شيء، فحتى لو كان الأمر حراما، فذنبه علينا لا عليه.

- تتكلم عنه كأبناء الزنى. إنه ليس كذلك يا وليد، إنه ابني وابنك.

يجد أنه يجب أن يقطع تفكيرها بتلك الطريقة. بصوت هادئ، لكنه حاسم يقول:

- وابن رجاء أيضا.

تصمت لحظة، ثم تنهار باكية..

- ابنها يا وليد.. ابنها تلك المسكينة، وتنتظره، وتحبه أكثر من الدنيا كلها. أعرف.. يبدو أن الأمر حرام، صدقني.

يربت على كتفها، ويحاول التعلق بأذيال الحكمة في البحث عن رد..

- الأمر ليس حراما يا أماني، وأنا مقتنع بذلك. الأمر فقط يحتاج لتأهل نفسي، وهذا ما أهملناه. في الخارج يسمحون بتأجير الأرحام مع توفر تلك العناية النفسية، لكن هنا، ولأنه ممنوع، لم تأخذي حقك في تلك العناية. ما رأيك أن نذهب لطبيب نفسي؟

فكرت في كلامه قليلا، ثم أومأت موافقة، فلم يعد يمكنها إلا الاعتراف بحاجتها إلى ذلك. تذكرت كلام أبيها في هذه اللحظة، فسارعت قائلة:

- لكن سنذهب للسونار أولا.

هم بالاعتراض، لكن الرجاء المتسيد قسماتها أجبره على الموافقة.

...

أخذ الطبيب يحرك مجسه على بطنها، وقد بدا جادًا، وهو يستمع إليها. نظر إلى وليد الذي بدا قلقا، فقال له:

- في مهنتي، طوال ثلاثين سنة، تعلمت أن أحترم إحساس الأم - هاجسها. مواقف كثيرة أثبتت لي نسبة عالية لصدقه، ولذا تجدني آخذ الأمر بجدية، ولا أعتبر كلامها مجرد وسوسة أو كابوس.

تسارعت ضربات قلبيهما، ولم يستطيعا سؤاله. أكمل هو..

- بالفعل أحد الطفلين — البنت — على شفا الموت، فضربات قلبها لا تجاوز الثلاثين.

يتنهد..

- المفروض أن تكون ضربات قلب الجنين من ١٢٠ — ١٦٠ وتلك الثلاثين تكاد تعتبر توقف بالقلب.

ينظر إليها بإمعان، ويتكلم وعينه مثبته بعينيها..

- الذكر سليم تماما.. احمدي الله عليه. نصيحتي أن تنسي تماما أنهما كانا توأما، والجئي لطبيب نفسي، ولا تكوني كأولئك المتخلفين الذين يعتبرون التعب النفسي مهانة.

يسأله وليد في هدوء مصدوم..

- لا أمل أن يتحسن نبض البنت؟

- لا.. إنه منتظم على ذلك.

- وهل ستبقى ببطنها؟

يرفع نظارته على أنفه، ويشرح لهما..

- رجاء الآن في أسبوعها السادس والعشرين.. لا يمكن أن تلد الآن، فذلك يمثل خطر كبير على الجنين السليم. أمامنا اختياران: إما أن نفتح الرحم بما يشبه القيصرية، فنخرج الجنين الميت، ثم تستمر بعد ذلك على مثبتات للحمل لمنع انقباضه، وغالبا تلد مبكرا، وقد يحدث التهاب بالرحم نتيجة فتحه، يجبرنا على توليدها الجنين السليم قبل أن يكتمل ونلجأ للحضّانة، والتنفس الصناعي.

أو أن نتركه ونتابع متابعة قريبة بالسونار، والتحاليل، لأن بعض الحالات سجلت تضرر مخ الجنين الثاني بعد أسبوعين إلى خمس أسابيع من موت الأول، ولكن ذلك يحدث للتوائم المتماثلة ذات المشيمة الواحدة، وليست هذه حالتك، فاطمئني.

يسأله وليد مجددا:

- وما رأيك أنت يا دكتور؟

- أرى أن نعطي فرصة، فالجنين الثاني يبدو سليما تماما.

يهز رأسه، وقد قلب شفتيه..

- في الحقيقة أرى الآخر أيضا سليم، وما حدث له غير مبرر حسب السونار.

تتابع أماني الحوار دون تعليق. ترى وليد يهم بسؤال جديد، فتقاطعه:

- هل ترشح لنا اسم طبيب نفسي يمكنه مساعدتي؟

ينظر إليها بابتسامة مشجعة، ويجيبها:

- هذا أفضل ما تفكرين فيه بالفعل.

التف بكرسيه ليواجه الرف الصغير المجاور لشاشة السونار، وفتح دفتره، وأخذ يكتب لبعض الوقت، ثم قطع ورقة العلاج، وناولها لوليد، فالتقطتها هي..

- هل يمكنك أن تكلمني أنا عما يخصني؟

احمر وجهه الأشقر، وتدارك وليد الموقف سائلا الطبيب:

- متى ستكون المتابعة القادمة؟

بالفعل استجاب له الطبيب، وتجاهل أسلوب أماني مقدرا ما هي فيه، آخذا في الاعتبار جنسيتها المذكورة في أوراقه، والتي لا يستغرب من كثير منهم ذلك الأسلوب.

- في هذه الورقة اسم طبيب نفسي وعنوان عيادته، وبعض

التحاليل الضرورية، والتي ستكون دورية في الفترة القادمة، وسأتابعها بالسونار بعد ثلاثة أيام، لنرى ما يكون.

في المرة القادمة، ربما أطلب منكم أيضا صورة رنين مغناطيسي على مخ الجنين. قليل جدا من المراكز الطبية من لديهم خبرة فيه، لكن دعنا لا نستبق الأمور.

عاد ينظر إلى أماني، ويقول:

- لا تستكبري أن تحزني يا رجاء، فهذا أفضل كثيرا من أن تكبتي انفعالك، فتكتئبين، ويتأثر طفلك أيضا، واعلمي أن الطبيب النفسي مهمته لن تكون أن يخفي حزنك أو يزيله، بل أن يساعدك فقط على التعامل معه.

شكره وليد، وخرج وأماني تتعلق بذراعه، ولا تكاد ترى ما أمامها. ركبا سيارة أجرة، وطلب وليد من السائق الاتجاه إلى عنوان الطبيب النفسي. كانت لا تكف عن التمتمة بكونه لم يكن حلما.. وكان يتصنع عدم سماعها، لاجئا – أكثر منها – إلى الطبيب النفسي آملا أن يدركها قبل الانهيار.

...

علت نغمة هاتفه فقطعت هدوء صالة الانتظار بعيادة الطبيب النفسي. أسكته، وخرج إلى السلم ليرد على رجاء، وقد تذكر أخيرًا أنه لم يترك لها أي خبر عن اتجاههما، وقد نزلا وهي لم تزل نائمة.

- رجاء.. سامحيني حبيبتي، لكن تعبت أماني أثناء الليل، فانتظرنا الصباح، وذهبنا للطبيب، و لم أشأ إزعاجك.

بالطبع هاجت، وانطلق لسانها بلا توقف تتحدث عن حقها في أن تكون معهم، وأن تطمئن على ابنها، وعلى أماني أيضا. قاطعها بما أسكتها حين نبهها أنه لم يكن ممكنا أن تتواجد هي وأماني معا عند طبيب النساء. وجمت رجاء، وأحست الأرض تميد بها، وبصوت خفيض سألته:

- نساء!.. أهو تعب بالحمل؟ قل لي أرجوك، لا تكذب عليّ. هل حدث شيء لابني؟

كان صوتها يبكي، و لم يكن يريد أن يقول لها ما كان إلا وهو يضمها، وترى تعب أماني ليلهيها عن هم نفسها بعض الشيء. لكن لم يكن بد الآن وقد سألته..

- هو ما قلتِ يا رجاء، كأن قلبك أحس بما حدث.

كادت تفقد وعيها، وهي تراجعه..

- حدث شيء إذًا!

- ابنك بخير يا رجاء، لكنه فقط ابن واحد. سأشرح لك أكثر حين نعود، لكننا الآن عند الطبيب النفسي.

- طبيب نفسي!

- أماني متعبة جدا، وكانت نصيحة طبيب النساء أن نعجل بطلب مساعدة نفسية.

كانت تبكي وهي تتكلم، وتحاول أن تتماسك، والقلق يقبض صدرها..

- أنا لا أفهم شيئا مما يحدث بالطبع، لكن اطمئن على أماني أولا،ولا تتأخروا عليّ.

شرد يفكر.. "طيبة أنتِ يا رجاء، لولا.." ، لكن قاطعه إغلاقها للهاتف، في نفس اللحظة التي خرجت السكرتيرة - أو الممرضة، لا يدري — تناديه.

دخل إلى حجرة الطبيب، فوجد أماني جالسة على الكرسي أمام مكتبه، فتقدم، وجلس قبالتها، وألقى التحية. ابتسم الطبيب في تودد، وقال موجها كلامه إلى وليد:

- لا أصدق أن تبدءا في شيء كهذا ولا تجيئا منذ البداية!

التفت إلى أماني متسائلا، فأكمل الطبيب..

- أماني حكت الموقف كله، الأمر لا يحتمل الإخفاء، على الأقل عن طبيبها.

احمر وجه وليد، فقال له الطبيب:

- باختصار، ولكي لا آخذ دور الحكيم الممل، لقد استصغرتم عقول غيركم دون داعٍ. دكتور علاء يعرف أن من أخذ منها البويضة غير تلك التي زرعها بها، وهذه ليست أول مرة تحدث معه. لقد اتصلت به الآن، وأخبرني بتفاصيل الأمر. الضغط النفسي على أماني كان يتضاعف حين تراه يكلمها

باسم صاحبة البويضة ناكرًا شخصها وأمومتها. أنتما معا قسوتما على أماني كثيرا.

تنهد وليد وهو لا يجد ما يقول، وامتدت يده لا شعوريا لتمسك بكف أماني المستند إلى المكتب. توجه للطبيب يسأله..

- معك كل الحق يا دكتور.. أريد فقط أن أسأل، هل هناك تفسير لتلك الكوابيس؟ أهي نبوءة، أم هو أبوها حقا؟ أم..

قاطعه بحزم..

- ليس هذا وقت التفاصيل والأمور الفرعية الصغيرة، فهناك الأهم.. والأهم هو القادم لا ما فات، وسنتابع القادم عن قرب شديد، لا مجال للإهمال في ذلك، من أجل الاثنين، الحالة النفسية، والحمل وإكماله أيضا.

أكمل موجها كلامه لها:

- أغلب ما تحتاجين من دواء لن يمكنني إعطاءه لك بأمان، خاصة وهذا يعتبر طفلا ثمينا، ومع ظروف موت أحد الأجنة أيضا، علينا المزيد من الحذر. لذا فسنستمر في ظلم أماني بعض الشيء، لكن الفرق الآن أننا سنعترف بوجودها، وسنعترف بظلمها. هل تشعرين بفرق في هذه الحالة؟

تأخذ نفسا عميقا قبل أن تجيب باختصار..

- أكيد.

دخل وليد إلى المطبخ.كانت رجاء تقف أمام وعاء تصنع فيه بعض الحلوى.. تأملها دون صوت، فوجدها تمسح عينيها في أكمامها مرة وراء أخرى. ناداها برفق كي تشعر بوجوده، ثم اقترب فأحاط خصرها من الخلف، وضمها إليه مقبلا كتفها.

- لا تحزني يا حبيبتي، فالطبيب طمأننا على الجنين الثاني، وقال إنه يتوقع أن يكمل الحمل لنهايته بخير.

لم ترد.. اهتز جسدها معلنا بكائها، الذي خجلت من إعلانه، وهي ترى حال أماني الأولى بالاهتمام. ضمها إليه أكثر، وأخذ الملعقة الخشبية من يدها، فتركها على المنضدة، ولفها إليه.. رفع ذقنها بيده، ونظر في عينيها، فهاله ما بها من انكسار.

- رجاء.. لم أرك بهذا الحال أبدا، كنت دائما قوية!

- خائفة.. خائفة يا وليد.. ضاعت نصف فرحتي، وخائفة على بقيتها.

- لا تقولي ذلك. بل قولي فدى أحدهما الآخر، وسيكرمك الله في القادم. سيتابعه الطبيب على فترات متقاربة، وستكونين مع أماني في زيارته لتطمئني بنفسك.

- سأذبح فداء للثاني.. أريد أن أذبح كبشين.

ربت على ظهرها، وابتسم موافقا..

- وسنسمه إسماعيل أيضا، ما رأيك؟

اختلطت دموعها بشبح ابتسامة، وأومأت موافقة، وقالت:

- نسأل أماني، لو وافقت يكون إسماعيل.

ضمها إليه بقوة، وهو يهمس في أذنها..

- كم أحبك يا طيبة.

...

لم يكن ممكنا أن يسافر وليد ويتركهم بعد ما حدث، فكان يسافر أياما إن اقتضى الأمر، ويعود. عمر عرف ما حدث، وأشفق على ثلاثتهم من نقاشاته، فلم يثرها منذ ذلك الحين. الصغيران لم يفهما الأمر، ولكنهما أحسا بتوتر الحال فكفا عن إثارة الشغب قدر استطاعتهما. أما رجاء وأماني فكانتا لا تكادان تفترقان.

تحسنت أماني كثيرًا مع الوضع الجديد، والمتابعة النفسية. كانت رجاء تصطحبها عند طبيب النساء، والطبيب ينادي كل منهما باسمها، ويريهما معا صورة الطفل على الشاشة. كل شيء سار في هدوء، وانحسر القلق كثيرا.. حتى كانت تلك المرة..

- ستبقين معنا بالمستشفى يا أماني.

كادتا تقفزان جزعًا، وهما تسألان في صوتٍ واحد:

- لماذا؟

- نبض الجنين أبطأ من المرات السابقة.. لا يزال طبيعيا

لكن لا داعي للمغامرة، وسنضعك على (مونيتور) مستمر لقياس نبضه ليل نهار.

- فإن تناقص؟

كانت أماني من سارعت بالسؤال، فأجابها:

- ستكون القيصرية طارئة.

نظر إلى وجهيهما المحمرين قلقا وانفعالا، وقال في جدية شديدة:

- القلق سيؤذي الحمل أكثر.. افهما جيدا أني قلت أنه لا يزال طبيعيا.. ولن نتركه يتعرض للخطورة، فأنا أفهم جيدًا أهميته لديـــ... لديكما معا بالتأكيد.

دمعت عين أماني، وسبقتها رجاء بالسؤال هذه المرة..

- لكن لا يزال ٣٢ أسبوعا.. يحتاج ثمانية أسابيع أخرى قبل اكتماله.. هذا خطر.

نظر إليها لحظة، ثم رد عليها..

- أراكِ تفهمين الأمر.. نعم هناك خطورة، ولذا لن نسارع إلى القيصرية، وسنعطيه فرصة تحت الملاحظة ثانية بثانية. في حالة تعرضه للخطورة بالداخل، لا حل إلا القيصرية والحضّانة، وجهاز التنفس الصناعي ربما لشهر أو يزيد.

أنهى كلامه، رفع حاجبيه قالبًا شفته السفلى، معبرًا عن عدم وجود اختيارات بديلة. وجمتا لدقيقة، قبل أن تحتضن رجاء

أماني، وترجوها ألا تقلق، وتخبرها أنها ستذبح كبشين آخرين فداءً لإسماعيل..

– إنه إسماعيل، أليس كذلك؟ وافقي يا أماني على الاسم ليأخذ فأله ونفتديه.

تومئ أماني موافقة، وهي لا تستطيع حبس دموعها أو التكلم. وتهاتف رجاء وليد، ليأتي ويكمل إجراءات الدخول للمستشفى، حيث نصحهما الطبيب ألا تتواجد رجاء قدر الإمكان حفظا لسرية الأمر، ولعدم المساءلة أو الابتزاز ممن قد يدرك ما يفعلون من العاملين بالمكان.

...

يومان مرا، والأحزمة المحتوية مجسات النبض ملفوفة حول بطن أماني لا تفارقها إلا حين قيامها لقضاء حاجتها. عيناها قد احمرتا من تعلقهما بشاشة الجهاز، وآلمتها رقبتها. نصحها الطبيب بأن تريح أعصابها، فالبيانات مرئية بالخارج أمام ممرضة تتابعها، لكنها لم تستطع إنزال عينها من عليها لحظة، إلا أن تنام.

دخل وليد، ورجاء معه، والأولاد كذلك. ابتسمت للمرة الأولى منذ دخلت المستشفى حين رأتهم.

– مفاجأة جميلة!

ابتسم وليد، ونظر لرجاء، التي رسمت المباهاة على وجهها

متضاحكة وهي تقول له:

- ألم أقل لك؟.. ما أدراك أنت بالمرأة يا زوج الاثنتين؟

ضحكوا جميعهم، ثم نظر وليد ورجاء إلى الشاشة، فقالت أماني:

ثابت كما هو منذ جئنا على الـ ١٢٥ يقل أو يزيد باثنين لا اكثر.

ردت رجاء محاولة أن تبدو مطمئنة..

- الحمد لله يا أماني، فالطبيب يقول أن كل يوم له بالرحم مكسب كبير.

دخلت ممرضة في تلك اللحظة منادية:

- مدام رجاء.

- نعم!

كانت رجاء من ردت تلقائيا، فابتسمت الممرضة، قائلة:

- لا أريدها هي نفسها لتأتي معي لعمل الرنين المغناطيسي بعد عشر دقائق.

أخفت رجاء ارتباكها، وأجابتها..

- حسنا، سأساعدها لتغير ملابسها.

- لا يهم. فقط لا تترك أي شيء معدني في لبسها على الإطلاق.

خرجت الممرضة، ولم تجد رجاء ما تفعله إلا أن تأخذ

الأولاد معها وتنصرف.

زفر وليد مستاءً، فقالت أماني:

- لا عليك.. خطأ وارد.

- الأولاد يا أماني.. عمر يفهم الأمر ككل، وسنا صغيرة ربما لن تنتبه لما حدث، لكن بهاء سيجدنا مزورين لأسميكما.

تتنهد في ضيق..

- أتمنى ألا يكون قد انتبه لما حدث.. أرجوك لست أحتمل المزيد يا وليد. انس ما حدث مؤقتا، وساعدني لخلع هذا القرط من أذني.

...

لم يعد بد منها.. تناقص عد نبض الجنين ببطء منذ الليل فقرر الطبيب ألا ينتظر أكثر، وحدد الصباح كآخر فرصة للملاحظة. كان حملها قد أتم ٣٣ أسبوعا ويوما. و أخذوا أماني حاملة اسم رجاء إلى حجرة العمليات.

كانت رجاء تبكي وشفتاها ترتعشان وترددان كل ما يرد إلى عقلها من دعاء، بينما ذهب وليد يطوف على المستشفيات يبحث عن مكان بالحضانة منذ الأمس. خرج طبيب الأطفال المبتسرين من حجرة العمليات يحمل الحضانة المؤقتة في يده، فاستوقفته رجاء، وأخذت تتأمل ابنها، وتبكي و تدعو بكل ذرة من تعلق بالله في كيانها. قال لها في هدوء إن الوقت ليس

وقت البكاء، وأن عليهم أن يجدوا حضّانة، فتلك المؤقتة لن يمكنه الاستمرار فيها أكثر من بضعة ساعات. سألته عن الحضانات لديهم إن كان هناك أمل أن يخلوا فيها مكان خلال تلك الساعات، فرد آسفا إن الحضانات كلها مشغولة، ولا أمل في إخلاء أيها الآن.. سألته عن إمكانية شراء واحدة، فضحك.

- غير تكلفتها العالية، فهي تحتاج لإعداد وتجربة قبل أن يمكننا استخدامها لطفل.

- لا يهم التكلفة مهما كانت.. سأتبرع بها لأي مكان يعدني بحضانة لإبني.

- ابنك!.. على أية حال يمكنك بالفعل تقديم هذا العرض للمستشفيات الحكومية التعليمية، فهم يقولون أن ليس لديهم مكان من أجل الاحتياط لحالاتهم.

نظرت إلى طفلها، وهي تتمنى أن تضمه إلى صدرها.بدا من وراء الصندوق البلاستيكي الشفاف صغيرا جدا.. وجميلا جدا.. وبدا يجتهد ليتنفس. لم تكن تريد تركه، لكن الطبيب سألها أن تتركه كي يذهب به لقسم المبتسرين بعيدا عن العدوى وعن البرد.

هاتفت وليد، وأخبرته بما قاله الطبيب. سألته أن يذهب للمستشفيات الحكومية التعليمية، وأن يعرض التبرع أو حتى يترك لهم شيكا بتكلفة حضانة. قال لها أنه بالفعل بجوار إحدى

تلك المستشفيات، وسيجرب ما تقول.

سألها عن أماني إن كانت قد خرجت من العمليات، فاحمر وجهها خجلا من نفسها، ولكنها أخبرته أن ليس بعد، ولكن الطفل خرج فهي بالتأكيد على وشك.

- طمئنيني بمجرد خروجها يا رجاء، ولا تتركيها وحدها. سأرسل لك رقم طبيبها النفسي في رسالة، فاتصلي به، واشرحي له ما يحدث، واسأليه إن كان هناك ما تحتاجه، أو إن كان سيبدأ لها أي أدوية. أنا وصلت الآن فسأتركك، وأنتظر مكالمتك لتطمنيني.

- لا تخف يا وليد.. سأكون معها، وطمئنني أنت أيضا بمجرد عثورك على حضانة.

كانوا يدفعون أماني على الناقلة (الترووللي) ولم تفق تماما بعد، فأغلقت رجاء الهاتف، وجرت إليها.

...

أفاقت أماني لتجد وليد ورجاء يحيطانها. بدأت دموعها تسيل متلاحقة دون صوت. حضنتها رجاء وهي تقول لها:

- ابننا بخير يا أماني.. لقد وجدنا الحضّانة، ويقولون أنه بخير.

تبتسم لها مشجعة..

- هيا يا أماني كوني قوية، فهو يحتاج لبنك.

- لبني؟!

- نعم.. سنأخذه بهذه المضخة، ونعطيه لهم لتغذيته. يقولون أنه ربما بعد أسبوع يمكنه الرضاعة منك، لكن الآن لا.

تضع كفيها على ثدييها، وتحس بألم فيهما. تدمع، وتسأل رجاء:

- هل يتنفس أم على تنفس صناعي؟

يرد وليد:

- يضعون له قناع الأكسجين يا أماني، لكنه يتنفس بنفسه دون جهاز.

توجه كلامها لرجاء، كأنها لم تسمعه..

- هل رأيته؟

أومأت أن نعم، وهي تقول لها:

- إنه جميل. أتعلمين.. إنه يشبه بهاء كثيرا.

ابتسمت أماني، فقد كان بهاء أشبه أبنائها بها لا بأبيه.

- ألا تصدقين؟ اسألي وليد.. أليس يشبه بهاء وأماني يا وليد؟

يبتسم، وهو حائر لا يجد إجابة.. هو غير مطمئن، ولا يدري ما الذي يمكن أن يحدث في الأيام القادمة. يشفق على أماني، ويخاف على رجاء، ولا يدري ما سيكون من أمر الوليد. تقطع أماني شروده، وهي تتأمله بعمق..

- أنت غير مطمئن يا وليد.. أعرفك جيدا.

يربت عليها دون أن يرد. تجهش باكية، فلا تستطيع رجاء التماسك، فتخرج من الغرفة. تمسك أماني بكف وليد، وتسأله:

- هل سميته؟

- ليس بعد.

- لماذا؟

- يقولون ليس قبل أن يكمل أسبوعه الخامس والثلاثين سيعطوننا ورقة الولادة لتسميته.

- هم لا يعتبرونه حيا؟.. هل سأراه؟.. أريد أن أراه.

يحاول أن يهدئ من روعها، فيتماسك متظاهرا برفض ما تفعله..

- أماني.. الولد بخير الحمد لله، وصحتك لا تحتمل ما تفعلينه. تماسكي وحاولي أن تعطيه لبنك، لأنك قد تحتاجين أدوية نفسية إن استمر الحال بك هكذا، وحينها لن يمكنك إرضاعه.

يمسك بالمضخة، فيناولها لها.. تتناولها في صمت، ولكنها تشعر بدوار..

...

- أكملي دورك، واحلبي لبنك. لا تطلبي رؤيته فهذا أفضل لك. انتهى دورك كأم له يا أماني، وما بقى لديك له فقط

بعض الحليب.

...

تفيق وهي تصرخ، فتجد الطبيب، والممرضات حولها، ووليد يأخذ رجاء في صدره، وقد استحال وجهها آية للجزع. تتساءل في ضعف:

- ماذا حدث؟

ينظر إليها الطبيب في جدية..

- أنا من أسألك ماذا حدث؟ لقد كاد قلبك أن يتوقف. بماذا أحسستِ قبل إغمائك؟

- إغماء!.. لقد كنت أحلم، فكيف يكون إغماءً؟!

- تحلمين؟!

ترك وليد رجاء، واقترب منها، واحتضن كفها..

- أهو والدك مرة أخرى؟

أومأت أن نعم، فكاد يفقد سيطرته على انفعاله، ويلعنه.

...

ترك أماني في المستشفى، وقد كتب لها الطبيب استدعاءً عاجلا آخر للطبيب النفسي. وترك رجاء عند الطفل، إسماعيل كما تناديه هي، في المستشفى الآخر. إنها تذهب إليه كل يوم، لتقف لمراقبته ساعات طويلة لا تمل. وكلما سمحوا لها بالدخول، تلبس ذلك الزي المعقم، وتدخل إليه خمس دقائق لا

يكاد جفناها يطرفان خلالهم.

أخذ يمشي وحده هائما.. ها هي رجاء تتعلق بالطفل أكثر كمجنونة، ولا يدري ما قد يحدث لها إن فقدته، وهو يراه بذلك الضعف، وقد يموت في أي لحظة..

أماني تكاد تكون في انهيار، وذلك الهاتف اللعين يطاردها، ويجلدها. لا يمكن أن يكون أباها، بل بالأكيد هذا وسواس حقير.

أبناؤه قد رأوا ما لم يره أبدا من في مثل سنهم، ولا يعلم كيف سيتعاملون مع كل تلك الإشكاليات، التي يقف هو نفسه أمامها مشتتا.

يتجسد في الهواء أمامه ضاحكا.. شامتا.. يجلده بالكلمات متهما له بأنه السبب في كل ذلك.. يصمه بالكثير من النعوت.. ويعلو صوته في أذنيه، فيفقده تركيزه.

يحاول أن يهرب منه، لكن صوته يملأ رأسه باللوم بلا توقف. هل قضى على أماني، وتفرغ له؟.. يحاول التدقيق في واجهات المحلات.. السيارات وهو يعبر الطريق.. خطوته وظله على الأرض.. لكن أينما ألقى ببصره يجد ابتسامته الشامتة، وعينه القاسية ملتصقين بعينيه.

يمد السير، فيجد نفسه أمام مرسى القوارب. يختار مركبا بلا شراع، يغلق هاتفه، ويطلب من المراكبي الابتعاد به قدر إمكانه.